الفصل الثاني

التطور العُمراني للقرافة في العصر المملوكي

obeikandl.com

obeikandl.com

يعالج هذا الفصل النقاط التالية:

أولًا: مفهوم كلمة العمران مع تتبع مظاهر النشاط العمراني بالقرافة في بداية العصر المملوكي البحري.

ثانيًا: التطور العمراني للقرافة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ويشمل:

(أ)القرافة جنوب القلعة، وامتدادها، والمسميات المختلفة التي أُطلقت عليها.
(ب)القرافة شمال القلعة (أو عمران الصحراء خارج باب النصر).

ثالثًا: ازدهار عمران الصحراء في عصر المماليك الجراكسة.

رابعًا: تحليل مدلول لفظ التربة في العصر المملوكي من واقع المصادر التاريخية والنقوش الإنشائية المسجَّلة على بعض الترب الباقية حتى اليوم، والوثائق الخاصة بتلك الترب وبمنشآت الصحراء.

خامسًا: المسمَّيات المختلفة التي أُطلقت على صحراء المماليك من قِبَل الرحالة والعلماء الأجانب أو المصريين.

أولا: مفهوم كلمة العمران

ينبغي بادئ ذي بدء أن نحدِّد أولًا مفهوم كلمة العمران؛ حتى يكون واضحًا منذ البداية ما نرمي إليه في هذا الفصل، فالعمران كما يذكر أصحاب المعاجم اللغوية من: عمر، والعمارة نقيض الخراب، ومكانٌ عامرٌ: ذو عِمارة، وعَمَّر الرَّجُل بيته يعمُره عمارة وعُمرانًا: لزمه، وأعمره المكان واستعمره فيه: جعله يعمره، وعمرت بمكان كذا: أي أقمت به، والمعمر: المسكن ما دام عامرًا بأهله، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] أي أَذِن لكم في عمارتها، واستعمر الله عباده في الأرض: طلب منهم العمارة فيها، وأعمر الأرض: وجدها عامرة آهلة، والعمارة بالكسر ما يُعمَّر به المكان[١].

مما سبق يمكن القول بأن كلمة العمران تعني: المسكن العامر بأهله، أو تُطلق على ما يُعمَّر به المكان.

ويبدو أنه لم يحدث أيُّ نشاط عمراني ملموس كان له أثره الكبير في ازدهار شأن القرافة في بداية عصر دولة المماليك البحرية؛ إذ إنَّ كُلَّ ما ورد في ثنايا المصادر التاريخية التي تناولت هذه الفترة يتعلق بدفن بعض سلاطين وأمراء المماليك البحرية في القرافة[٢].

---

(١) الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، أساس البلاغة: ج٢، القاهرة ١٩٢٣م، ص١٤١. ابن منظور: لسان ج٦ ص٢٧٨-٢٧٩، ٢٨٨. الزبيدي: تاج ج٣ ص ٤٢١-٤٢٢، ٤٢٥.

(٢) مثال ذلك ما ورد بشأن دفن كلٍّ من السلطان المظفر قطز، (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). والسلطان المنصور لاجين، (ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م). والسلطان بيبرس الجاشنكير، (ت ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م).

=

أو يتعلق بأعمال عمرانية قليلة من بينها رباط أزدمر الصالحي[١] قبل ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م ورباط ابن أبي المنصور[٢]، وجامع ابن عبد الظاهر[٣]، والزاوية

=

ودفن بالقرافة أولًا، ثم نُقل إلى خانقاته بالجمالية. ابن حبيب الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م). تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: تحقيق محمد أمين: ج١، القاهرة ١٩٧٦م، ص٢١٢. المقريزي: الخطط: ج٢، ص٤١٨، السلوك: ج١ ق٢ ص٤٣٥، ج١ ق٣ ص ٨٦٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٨ ص ١٠٥.

وعن أمراء المماليك البحرية الذين دُفنوا بالقرافة انظر: ابن تغري بردي: النجوم: ج٧ ص ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١، ج٨ ص ٣٧.

(١) لا تزال بقايا هذا الرباط قائمة (شكل ١٥) حتى الآن بشارع القادرية على يمين الذاهب في هذا الشارع قاصدًا الإمام الشافعي وذلك فيما بين بقايا تربة جاني بك نائب جده وزاوية زين الدين يوسف، وهو يعرف بمدفن مصطفى باشا (آثر رقم ٢٧٩)، وسوف نقوم بدراسة تفصيلية له في القسم الثاني من هذا الكتاب (بمشيئة الله تعالى).

وممن تناوله بالدراسة كل من كريزول وسعاد ماهر محمد وجمال عبد الرحيم وسمير عبد المنعم غنيم والعربي أحمد رجب. سمير عبد المنعم غنيم، الأربطة الباقية بالقاهرة من العصر المملوكي، ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة (١٩٩٨م) ص ٦٥-٩٨؛ العربي أحمد رجب، شارع القادرية ، ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٩٨م) ص ٩٧-١٢٦.

وسوف نقوم بمناقشة ما ورد في هاتين الرسالتين والدراسات السابقة لهما في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) كان هذا الرباط بالقرافة وعرف بالشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن أبي المنصور الصوفي المالكي، كان من بيت وزارة فتجرد وسلك طريق أهل الله، وعُرف بالبركة، وحُكيت عنه كرامات، وكان مولده (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، ووفاته برباطه هذا في يوم الجمعة ربيع الآخر (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٨، مج ٤، ص ٧٩٨-٨٠٠.

(٣) هو القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر، ولد بالقاهرة في ربيع الآخر (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، وعلت مكانته في دولة المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-

=

العدوية[١] بالقرافة الصغرى التي دُفن فيها الشيخ زين الدين يوسف (٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، وبني على قبره قُبَّة عظيمة[٢] (انظر لوحة رقم١) (شكل ٢١).

=

١٢٩٠م) وولاَّه كتابة السرّ، وتمكَّن من السلطان وحظي عنده، ولم يكن مُجيدًا في صناعة الإنشاء، إلا أنه دبر الديوان وباشره أحسن مباشرة، وأقام هذا الجامع بالقرافة الصغرى قبلي قبر الليث بن سعد، وكان موضعه يُعرف بالخندق، وأوَّل ما أقيمت به الخطبة في يوم الجمعة ٢٤ صفر ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وكان يومًا مشهودًا لكثرة من حضر من الأعيان، ولم يزلْ هذا الجامع عامرًا إلى أن حدثت المحن في عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) واختلَّت القرافة لخراب ما حولها، وهو اليوم -أي زمن المقريزي- قائم على أصوله، أما الآن فلا أثر له بالمرَّة. المقريزي: الخطط: مج ٤، ص ٣١٠-٣١١.

(١) تُعرف هذه الزاوية بزاوية عدي بن مسافر، وبالزاوية العدوية، ثم عُرفت بالزاوية القادرية لسكنى جماعة من ذُرِّيَّة سيدي عبد القاهر الجيلاني بها وتوليهم شئونها، والنظر على أوقافها، وقد نسبها المقريزي إلى الشيخ عدي بن مسافر ولم يتكلم عليها، وإنما ذكر ترجمة الشيخ عدي ووفاته بالموصل، وذكرها علي مبارك باسم جامع السادة القادرية؛ لأن بداخله ضريح سيدي علي القادري، وضريح سيدي أحمد، وسيدي حسين، وتعرف أيضًا بجامع عُلَيّ بضم العين المهملة وفتح اللام وتشديد الياء بصيغة التصغير، ولم تزل هذه الزاوية باقية إلى الآن خارج باب القرافة على يمين السالك منه في شارع القادرية المسمى باسمها، والموصِّل إلى قرافة الإمام الشافعي (انظر لوحة ١). المقريزي: الخطط: ج٢ ص ٣٠٤، مج ٤، ص٨٢١-٨٢٦؛ السخاوي: تحفة الأحباب ص ١٩١. علي مبارك: الخطط التوفيقية: ج٢ ص ٣٠٤، ج٥ ص ١٦٠.

أحمد تيمور: اليزيدية ومنشأ نحلتهم، القاهرة، (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، ص ٢٩.

(٢) هو الشيخ زين الدين يوسف بن محمد بن الحسن ابن الشيخ عدي، كان رجلًا مهيبًا، مُطاعًا عند أكابر مصر والشام، كريمًا، حسن الأخلاق، لا يبقي على درهم ولا دينار مع وجود الإقطاع، وما يُحَصّل من مريديه الأكراد، وله زاوية يُمَدُّ السماط فيها للوارد والمقيم كلَّ يوم مرتين.

ابن حبيب: تذكرة ص ٢٠٧.

=

ثانيًا: التطور العمراني للقرافة في عهد الناصر محمد بن قلاوون[١]

يعتبر عهد الناصر محمد الطويل الأمد أعظم العهود قاطبة في تاريخ الدولة المملوكية، كما كان الناصر محمد أعظم السلاطين في زمانه، وأعظمهم جاهًا وثروة، وفضلًا عن ذلك فقد كان رقيق الإحساس زوَّاقًا للحياة المترفة الناعمة فدفع بحاسته المرهفة وذوقه الفني حركة الإنشاء والتعمير دفعةً قويةً نشيطةً، فيذكر لنا من أرَّخ له قائمةً كبيرةً مما قام بإنشائه هو وأمراؤه من مساجد، وخانقاوات، وأربطة، وقصور، وقنوات، وجسور، وغيرها من المنشآت[٢].

=

المقريزي: السلوك: ج١ ق٣ ص ٨٥١.

السخاوي: تحفة ص ١٩٠ – ١٩١.

أحمد تيمور: اليزيدية ص ٢٤.

وممن تناول هذه الزاوية بالدراسة:

Creswell; The muslim Architecture of Egypt. Vol. II. PP. 229 – 233.

Layla Ali Ibrahim; The zawiya of Saih Zain ad – din Yusuf in Cairo, (Sonderdruck aus den mitteilungen des Deutschen Archologischen In,stetuts Abteilung Kairo, Dand 34. 1978) pp. 79 – 110,

العربي أحمد رجب، شاع القادرية، ص ٤١-٧١.

(١) تولى الناصر محمد عرش السلطنة المملوكية على ثلاثة مراحل: الأولى فيما بين (٦٩٣ – ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣–١٢٩٤م)، والثانية (٦٩٨–٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٨م)، والثالثة وهي المرحلة التي قاد فيها السلطنة بيد من حديد، وذلك فيما بين (٧٠٩ –٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م).

(٢) أحمد دراج: الجانب الأثري في كتاب صبح الأعشى (ندوة أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، المكتبة العربية، القاهرة ١٩٧٣م) ص ١٠٢؛ ولمزيد من التفاصيل عن حياة الناصر محمد وتاريخه ومآثره، انظر حياة ناصر الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس، الكويت (١٩٨٣م)،

=

وكان الناصر محمد يحب العمارة، فلم يزلْ من حين قَدِم من الكرك إلى أن مات مستمرًّ العمارة فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهم، وكان ينفق على العمارة المائة ألف درهم، فإذا رأى فيها ما لا يعجبه هدمها كلها وجدَّدها على ما يختار، ولم يكن قبله من الملوك في الإنفاق على العمارة كذلك[١].

وكان دَأب الناصر إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في الملأ وأمدَّه في الباطن بالمال والآلات وغيرها، فعمرت مصر في أيامه وصارت أضعاف ما كانت عليه[٢].

ويمكن القول بأنه في عهد الناصر ازداد نمو القاهرة واطَّرد عمرانها، بل وتعتبر العمارة في عهده من أجَلِّ العمائر في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر[٣].

وموجز القول: فإن معالم مدينة القاهرة الجديدة إنما تُؤرَّخ بعهده[٤] فقد عمرت في أيامه خارج أسوار القاهرة عدة أحياء ومناطق جديدة [٥] يهمُّنا منها منطقة

=

ص١٩-١٤٢، والأحوال الداخلية في مصر ابان الفترة الثالثة للناصرمحمد بن قلاوون (باللغة الإنجليزية، الكويت، ط ٣(٢٠٠٠م).

(١) المقريزي: السلوك: ج٢ ق٢ ص ٥٣٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص ١٨٥.

علي المليجي: عمائر الناصر محمد الدينية في مصر (رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م) ص ٧١.

(٣) Lane – pool (s): A history of Egypt in the Middle Ages, London, 1901. p.314.

(٤) أحمد دراج: الجانب الأثري ص ١٠٢.

(٥) وممَّا عُمِّر في أيام الناصر جزيرة الفيل، وناحية بولاق بعد ما كانت رمالًا يرمي بها المماليك النشاب، وتلعب الأمراء بها الكرة، فصارت كلُّها دورًا وقصورًا، وجوامع، وأسواق، وبساتين، وبلغت البساتين بجزيرة الفيل في أيامه مائة وخمسين بستانًا بعد ما كانت نحو

=

القرافة الواقعة جنوب القلعة، مقرّ الحكم وكرسي السلطنة، ومنطقة الصحراء[١] الممتدة في شمال القلعة التي أصبحت شيئًا فشيئًا تُشكِّل امتدادًا طبيعيًّا للقرافة في عهد الناصر محمد وفي عهود سلاطين المماليك الجراكسة (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م).

(أ)القرافة جنوب القلعة: (خريطة رقم ٦).

ازدهرت القرافة في عهد الناصر محمد الذي كان يحب التعمير كما سبق القول، وانعكس ذلك على أمرائه، فصار كلُّ واحد منهم في أيامه يفعل ذلك ويتقرَّب إلى خاطره بهذا الشأن، وصار لهم أيضًا غيَّة في ذلك، كما قيل: الناس على دِين مليكهم[٢].

ويُستدلُّ من المصادر التاريخية[٣] أن المنطقة الواقعة جنوب القلعة

=

العشرين بستانًا، واتَّصلت العمائر من ناحية منية الشيرج (السيرج) على النيل إلى جامع الخطيري إلى حكر ابن الأثير وزربيه قوصون، وإلى منشأة المهراني إلى بركة الحبش، حتى كان الإنسان يتعجب لذلك فإنه كان قبل ذلك بمدة يسيره تلالًا ورمالًا وحلفا، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء.

ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص ١٨٢ – ١٨٥.

(١) الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد التي ليس بها شجر ولا أكام، ولا جبال ملساء، يقال لها صحراء بينة الصحر، وقد يطلق عليها أحيانًا اسم: الجفر، والمعنى واحد.

الحموي: معجم البلدان: مجلد ٥ ص ٣٤٠.

(٢)ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص ١٨٥.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص ٤٤٤-٤٤٥، السلوك: ج٢ ق٢ ص ٥٤٠.

ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص١٨٥.

محمد مصطفى زيادة: حركة البناء والتعمير في عصر الناصر (المجلة التاريخية المصرية– =

والممتدة من قبة الإمام الشافعي إلى باب القرافة[1] كانت ميدانًا

=

المجلدان ٩، ١٠ – عام ١٩٦٠ – ١٩٦١م، ص ٢٤٣.

(١)باب القرافة: هو أحد أبواب مدينة القاهرة، ويقع في نهاية شارع السيدة عائشة، ويقال له: باب قايتباي؛ لأنه قام بتجديده عام (٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م) كما هو مدون عليه، أو: باب عائشة؛ لقربة من جامعها، وكان هذا الباب يخرج منه أهل القاهرة إلى قرافة الإمام الشافعي، والقرافات المجاورة لها، ولما فُتح شارع الفتح الجديد خلف جامع السيدة عائشة أصبح الترمواي والسيارات والعربات، وجميع الناس الذاهبون إلى القرافات يمرون من شارع الفتح لسعته، وأصبح المرور من باب القرافة قاصرًا على الراجلين.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٩ ص١١١، حاشية ٢. والواقع أن باب القرافة الأصلي يوجد إلى الجنوب من باب قايتباي المشار إليه، وعلى بعد ٣٠م منه، وقد اكتشفه المهندس عباس بدر، وأشار إلى ذلك البروفيسور كريزول في كتابه (شكل ١٤).

Creswell: Op. Cit. Vol . II. PP. 57-58

أسامة طلعت: أسوار صلاح الدين ص٩٤ – ٩٧، إيناس حسن زكي: ميدان صلاح الدين أسفل قلعة الجبل، رسالة ماجستير (قيد النشر) جامعة حلوان (١٩٩٤م) ص ٢١٤ – ٢١٥.

ويبدو أن هذا الباب قد أُهمل أو أُغلق لسبب ما، مما اضطر السلطان قايتباي إلى عمل الباب الحالي الذي أشار إليه محمد رمزي، أمَّا باب القرافة فقد أشار السخاوي إلى أن السلطان جقمق أمر بإغلاقه (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وأنه صار لا يفتح إلا في يوم دورة المحمل في رجب. السخاوي: تحفة الأحباب ص ١٥٩. ورغم وضوح هذه الحقيقة المثبتة يطالعنا أحد الباحثين المحدثين بمفاجأة لم يسبق إليها -ولن- وهي أن باب القرافة قد نُقل من موضعه القديم وأدخلت على عمارته عدة تجديدات في عصر قايتباي ٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م، والغوري. محمد محمد الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية ص ١٥٣، حاشية ٣ (ومن الملاحظ أن المصدر الذي أحالنا إليه هو المقريزي: ج٢ ص٢٠٤، فهل كان المقريزي ت (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) معاصرًا لكلٍّ من قايتباي (ت٩٠١هـ/ ١٤٩٥م)، والغوري (ت٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)؟؟ والصحيح في ذلك هو ما سبق أن أثبتناه من أن باب القرافة الأول لا يزال باقيًا في موضعه إلى الجنوب من باب قايتباي، وعلى بعد ٣٠م منه، وقد أمر السلطان جقمق بإغلاقه (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وصار لا يفتح إلا في يوم دورة المحمل الرجبي كما سبق القول.

=

واحدًا[1] تتسابق فيه الأمراء والأجناد، ويجتمع الناس هنالك للتفرُّج على السباق فتصير الأمراء تسابق على حِدَة، والأجناد تسابق في جهة، وهم منفردون عن الأمراء، والشرط في السباق من تربة الأمير بيدرا[2] إلى باب القرافة، ثم قام أمراء الناصر محمد بالبناء في هذه المنطقة بعد عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، فبنوا فيها الترب، والخانقاوات، والأسواق، والطواحين، والحمَّامات، والجوامع، وتنافسوا في ذلك

=

أما باب قايتباي فقد استحدثه السلطان قايتباي سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م) وفق طراز ونمط مغاير، وبالتالي فإن باب القرافة الأصلي –أو الأول– لم يجدد، وإنما حلَّ محله باب آخر جديد إلى الشمال منه بنحو ٣٠م، وقد عُرف هذا الباب الجديد بباب قايتباي، أو باب عائشة، أو باب القرافة، وقد اكتشف باب القرافة الأصلي عباس بدر كما سبق القول.

(١) يذكر محمد رمزي أن هذا الميدان هو ميدان الملك السعيد محمد بركة خان ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٧ ص٢٦٤، حاشية ٢.

(٢) لم تحدد المصادر من هو بيدرا صاحب هذه التربة، ومهما يكن من أمر فهناك بيدرا المنصوري نائب السلطنة، وقاتل الأشرف خليل، وتوفي ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م.

ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ج٣، تحقيق نبيل عبد العزيز، مركز تحقيق التراث، القاهرة ١٩٨٦م، ص٤٩٣-٤٩٤.

وهناك الأمير بيدرا العادلي أحد أمراء الأربعين بدمشق، ومات في رجب (٧١٤هـ/ ١٣١٤م) العسقلاني: الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ج١ ص٥١٣.

أما موضع هذه التربة فلم يحدده المقريزي، ولكن على ضوء ما ذكره السخاوي يمكن تحديد موضعها على وجه التقريب، فيذكر أن تربة بيدرا أو بيدار كانت تقع بالقرب من مشهد اليسع وروربيل (مشهد إخوة يوسف – الأسباط).

السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٧٤.

وبما أن مشهد إخوة يوسف لا يزال باقيًا للآن بالقرب من قُبَّة عمر بن الفارض بالأباجية، فهذا يعني أن هذه التربة كانت واقعة في هذه المنطقة أو على الأقل بالقرب منها.

حتى بلغوا في عمارته مبلغًا عظيمًا، حتى صارت العمائر متصلة من باب القرافة إلى بركة الحبش لا يوجد بها قدر ذراع بغير عمارة[١].

وفي قول آخر: وعمرت القرافة من باب القرافة إلى بركة الحبش طولًا، ومن القرافة الكبرى إلى الجبل عرضًا[٢].

وهذا يعني أن حركة الإنشاء والتعمير التي تمَّت في عهد الناصر على يد أمرائه امتدَّت فشملت القرافتين: الكبرى والصغرى، مما كان له أثره الكبير في ازدهارها، فقد انقسمت الطرق وتعدَّدت الشوارع فيهما حتى رغب كثير من الناس في سكناها لعظم القصور التي أُنشِئت بها، وسُمِّيت بالترب، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها وتواتر صدقاتهم ومبرَّاتهم لأهل القرافة[٣].

ويُفهم من نصِّ المقريزي الأخير أن القصور التي شُيِّدت بالقرافة سُميت بالترب، وهذا يعني أن لفظ التربة لم يعد يقصد به المقبرة، بل تطور مدلوله واتسع معناه، فصار يطلق على المبنى الذي يحتوي على أكثر من وحدة معمارية كما سيتبين ذلك في سياق هذا الفصل[٤].

---

(١)المقريزي: السلوك: ج٢ ق٢ ص٥٤٠. ابن الوكيل: يوسف أفندي الملواني، (ت١١٣١هـ/ ١٧١٩م)، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب: تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة (١٩٩٨م)، ص٣٣، نبيل محمد عبد العزيز، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٧٥؛ أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني لمدينة القاهرة، ص ٥٦.

(٢) المقريزي: الخطط: ج١ ص٣٦٥. على مبارك: الخطط التوفيقية: ج١ ص٩٥.

(٣)المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٤٤-٤٤٥.

(٤) انظر النقطة رابعًا من هذا الفصل.

أمَّا عن أمراء الناصر محمد الذين كان لهم الفضل في عمران هذه المنطقة فيذكر المؤرِّخون أن تربة الأمير بيبغا أو يلبغا التركماني[١] كانت أول تربه تستحدث بها[٢].

ومن هؤلاء الأمراء أيضًا طقتمر[٣] الدمشقي الذي ذكره المقريزي ضمن من كان لهم عمارة في هذه المنطقة من أمراء الناصر[٤]، والأمير أق سنقر شاد العمائر[٥]

---

(١) هو بيبغا، أو يلبغا التركماني أحد مماليك الناصر، كان ممن أراد القيام على سلار وبيبرس لما غلبا على المملكة مع جماعة من خواصّ الناصر، ففطنا بهم فنفيا إلى القدس في محرم (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، ثم جعلاه نائبًا بغزة بواسطة الأفرم نائب الشام، فعاش بها قليلًا ومات في السنة المذكورة.

العسقلاني: الدرر الكامنة: ج١ ص٥١٢-٥١٣.

(٢) يذكر كل من المقريزي والعسقلاني أن السلطان هو الذي أنشأ له هذه التربة، واشتد حزنه عليه، المقريزي: السلوك: ج٢ ق٢ ص٥٤٠.

العسقلاني: الدرر: ج١ ص٥١٢-٥١٣.

أما ابن تغري بردي فيذكر أنه هو الذي أنشأها، وشكره السلطان علي الملأ. ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص١٨٥.

ويؤيده السيوطي في ذلك، فيذكر أنه هو الذي أحدث هذه التربة.

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤٠.

(٣) كان طقتمر الدمشقي من مماليك الناصر وهو صبي، وكان يميل إليه كثيرًا، فأمَّره عام (٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، ومات في رجب (٧١٦هـ/ ١٣١٦م)، وكان مُفرط الجمال شديد الشُّح إلى الغاية.

العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢٢٤.

(٤) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٤٤-٤٤٥.

(٥)شاد العمائر هي إحدى وظائف الشدود، وهي إحدى الوظائف التي كان يشغلها عسكريون بحضرة السلطان المملوكي، ويتحدث صاحبها على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من المساجد والقصور والمنازل والأسوار وغير ذلك، وكان يشغل هذه الوظيفة أمير عشرة في أول الأمر، ثم صار يشغلها قوم بغير إمرة.

=

الذي قام بإنشاء جامع خارج باب القرافة عمَّره جماعة من العجم (٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م)[١].

والأمير ناصر الدين الحراني الشرابيشي الذي أنشأ جامعًا بالقرافة الصغرى في بحري الشافعي، وقد عمَّره عام (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م)[٢].

=

حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: ج٢ ص٦١٦.

(١)ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص٢٠٤-٢٠٥.

أما عن موضع هذا الجامع فلم يذكره المقريزي في خططه، وذكره إبراهيم بن مغلطاي في تاريخ سلاطين المماليك ضمن منشآت عصر الناصر محمد، فقال: جامع خارج باب القرافة بجوار تربة أيدغمش أمير أخور الملك الناصر، عمَّره ناس أعجام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م)، وقد اندثر هذا الجامع، وأقيم مكانه مقابر ضمن قرافة السيوطي جنوب القلعة.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٩ ص٢٠٤ – ٢٠٥، حاشية٤، ونضيف على ذلك فنقول أن هذا الجامع قد وردت الإشارة إليه في وثيقة أزدمر من على باى التي ذكرت أن الحد الشرقي لتربته "ينتهي إلى زاوية الأعاجم وغيرها". (دار الوثائق القومية بكورنيش النيل رقم ٢٤٠، أسطر ٤٦-٤٩)؛ حسين رمضان، منشأة أزدمر من على باى، ص ١٨٧.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نحدد موضع هذا الجامع بأنه كان قرب بقايا التربة المعروفة اليوم بقبة على بدر القرافي بقرافة السيوطي جنوب القلعة.

(٢) الشجاعي، شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية برباره شيفر، القسم الأول، النص العربي، نشر فرانز شتاينز، فيسبادن ١٩٧٨م، ص ١١٥. المقريزي: الخطط: ج٢ ص ٣٢٦، مج ٤، ص٣٢٥؛

السلوك: ج٢ ق٢ ص٥٤٤.

ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص٢٠٣.

ويذكر ابن أيبك أن هذا الجامع جدَّده ابن الحراني التاجر بالقرافة عند مئذنة الحريري بدكاكين بدر.

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله، (ق ٨هـ/ ١٤م).

=

وقام الطواشي صواب الركني بإنشاء جامع ظاهر باب القرافة تحت القلعة المحروسة[١].

وقام الأمير قوصون[٢] بإنشاء (شكل ٢٣ مكرر) جامع خارج باب القرافة[٣]، كذلك امتلأت القرافة في عهد الناصر محمد علي يد أمرائه بالعديد من

=

كنز الدرر وجامع الغرر: ج٩. الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر: تحقيق هانس روبرت، رويمر، القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٨٩.

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز: ج٩ ص٣٨٩.

(٢)هو الأمير الكبير سيف الدين قوصون حضر إلى مصر في عام (٧٢٠هـ/ ١٣١٠م)، وصار من المماليك السلطانية، ونزله السلطان من جملة السقاة، وشغف به وأحبه حبًّا كثيرًا، فأسلمه للأمير بكتمر الساقي، وجعله أمير عشره، ثم أعطاه إمرة طبلخاناه، ثم جعله أمير مائة مقدم ألف، ورقَّاه حتى بلَّغه أعلى المراتب واختصَّ به السلطان بحيث لم ينلْ أحد عنده ما ناله. المقريزي: الخطط: ج٢ ص ٣٠٧-٣٠٨، ولمزيد من التفاصيل عن الأمير قوصون انظر: حياة ناصر الحجي: الأمير قوصون صورة حية لنظام الحكم في سلطنة المماليك، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٣٢، جامعة الكويت، خريف ١٩٨٨م (هذا وقد أعيد نشر هذا البحث في كتاب حوى بضعة بحوث ودراسات لصاحبته وعنوانه: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، جامعة الكويت، ١٩٩٥م، ص ١٠٧ – ١٩٧).

(٣) الشجاعي: تاريخ ص١١٥-١١٦.

المقريزي: السلوك: ج٢ ق٢ ص٥٤٥.

ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص٢٠٧.

هذا ويذكر المقريزي في خططه أن هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاة قوصون، أنشأه الأمير قوصون، وعمَّر بجانبه حمَّامًا فعَمُرت تلك الجهة بجماعة الخانقاة والجامع.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٣٢٥، مج ٤، ص ٣١٨.

وبالبحث تبين أن هذا الجامع يقع خارج باب القرافة تجاه خانقاة قوصون كما ذكر المقريزي في =

الخانقاوات ومن بينها خانقاة كريم[1] الدين، وخانقاة الأمير

=

السلوك، وابن تغري بردي في النجوم، وليس داخل باب القرافة كما ذكر المقريزي في الخطط، وبما أن هذا الجامع يقع تجاه خانقاة قوصون، وهذه لا تزال آثارها قائمة، ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية، فإني أرجح أن جامع المسيحية هذا هو نفسه جامع قوصون، وجدَّده مسيح باشا والي مصر (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م)، فنُسب إليه، وهو خارج باب القرافة.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٩ ص٢٠٧ - حاشية٢، وعن مسيح باشا والي مصر العثماني فيما بين (٩٨٢-٩٨٨هـ/ ١٥٧٤-١٥٨٠م)، وجامعه انظر: الحدَّاد: موسوعة العمارة الإسلامية في مصر: مج٢ ج١ ق١، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٩٦-١٠٨.

(١) يذكر المقريزي في حوادث جمادى الآخرة (٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م) أن القاضي كريم الدين الكبير وولده بعد أن أُفرج عنه الناصر محمد أُلزم بالإقامة في تربته بالقرافة، وكان له يوم عظيم، وأتاه الناس من كل مكان، ثم أُخرج هو وولده إلى الشوبك بعد ما أشهد عليه أن جميع ما وقفه من الأملاك وغيرها إنما اشتراه من مال السلطان دون ماله، فأبقى السلطان أوقاف الخانقاة بالقرافة، ثم يذكر في حوادث (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، أن الشيخ مجد الدين أبو حامد موسى الأقصرائي استقرَّ في مشيخة خانقاة كريم الدين بالقرافة، ورتب عنده مائة صوفي، وخلع السلطان عليه. المقريزي: السلوك: ج٢ ق١ ص٢٤٧-٢٤٨، ٢٦٢.

ويذكر ابن قاضي شهبة أن الشيخ محمد بن عبد الله الشيخ الإمام بدر الدين أبو عبد الله المصري الشافعي المعروف بابن الزركشي درَّس وأفتى وولي مشيخة خانقاة كريم الدين بالقرافة، وأنه توفي (٧٩٤هـ/ ١٣٩١م) ودفن بالقرب من تربة الأمير بكتمر الساقي.

ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م).

تاريخ ابن قاضي شهبة: المجلد الأول، الجزء الثالث من المخطوط: تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م، ص٤٥١-٤٥٢.

ويدلُّنا هذا النص على أن هذه الخانقاة كانت مستمرَّة في أداء وظيفتها حتى أواخر (ق ٨هـ/ ١٤م).

وانظر أيضًا ابن العماد: شذرات الذهب: ج٦ ص٣٣٥.

بكتمر[١] الساقي التي أقيمت بآخر القرافة الصغرى في سفح الجبل مما يلي بركة الحبش في شهر رجب (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، وبنى بجانبها حمَّامًا، وأنشأ هناك بُستانًا، فعمُرت تلك الخطَّة وصار بها سوق كبير، وعدة سكان، وتنافس الناس في مشيختها[٢]، ووضع بها ربعة شريفة مكتوبة بالذهب جعل مستقرها بالقبة التي

---

(١) الأمير سيف الدين بكتمر الساقي كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم صار من مماليك الناصر محمد، ورقَّاه حتى صار أحد الأمراء الكبار، وعلا محله وطار ذكره، وكان السلطان لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا إلاَّ إذا كان في الدور السلطانية، ومات بطريق الحجاز عام (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٤-٤٢٥.

ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص٣٩٠-٣٩٧.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٣-٤٢٤، مج ٤، ص ٧٧١-٧٧٢.

ابن إياس: بدائع: ج١ ق١ ص٤٦٧.

أما عن موضع هذه الخانقاة، فقد ذكر بعض الباحثين أنه يصعب تحديد مكانها. علي المليجي: عمائر، ص ٧٧-٧٨.

والواقع أنه باستقراء ما جاء في المصادر التاريخية يمكن تحديد موضعها، فيذكر السخاوي أنها كانت بالقرب من مقام ابن عطاء الله السكندري، وعبد الله بن أبي جمرة الباقيين حتى الآن بقرافة علي أبو الوفا الكائنة تحت سفح المقطم من الجهة الشرقية لقرافة الإمام الليث، ويؤكد ذلك أيضا ما ذكره ابن إياس من أن هذه الخانقاة بجوار مقام سيدي محمد وفا رضي الله عنه، ومما هو جدير بالذكر أن المقامات السابقة كانت بجوار حوش الملك الظاهر بيبرس البندقداري المجاور لتربة بكتمر الساقي مما يتفق مع ما جاء في نص الوقفية الواردة على أحد أجزاء الربعة الشريفة من أن هذه التربة مجاورة لحوش الملك الظاهر. السخاوي. تحفة الأحباب ص٣٩٨.

ابن إياس: بدائع: ج١ ق١ ص٤٦٧.

مما سبق يمكن القول بأن هذه الخانقاة كانت تقع قرب هذه المقامات السابقة الباقية حتى الآن، وهذا التحديد يتَّفق تمامًا مع القول بأن هذه الخانقاة كانت بآخر القرافة الصغرى في سفح الجبل مما يلي بركه الحبش، فقد كانت هذه المنطقة تمثل آخر حدود القرافة الصغرى، =

بالتربة المعروفة بإنشائه المجاورة لحوش الملك الظاهر بالقرافة[١] الصغرى... وشرط الواقف أن لا تخرج من التربة المذكورة ولا تعار ولا تخرج إلا للإصلاح...[٢]. (لوحة٩١).

ويبدو أن محتويات هذه الخانقاة كانت عظيمةً جدًّا؛ لأن المقريزي يذكر أنه تفرَّق ما كان فيها من الفرش، والآلات النحاسية، والكتب، والربعات، والقناديل، وغير ذلك من الأمتعة، والنفائس الملوكية، وذلك عقب المحن التي حدثت في عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)[٣].

وأقام الأمير سنجر[٤] الخاذن خانقاة ورباطًا بالقرب من قُبَّة الإمام الشافعي[٥]، وأقام الأمير قوصون خانقاة في شمال القرافة مما يلي قلعة الجبل تجاه جامع قوصون

=

وآخر شقة من شقق الزيارات بها كما سنشير فيما بعد.

(١) هو حوش الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وكان يقع قبلي خانقاة بكتمر الساقي.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، القاهرة ١٩٦٢م، ص٧٤ لوحة ٢.

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان الغوري نقل هذه الربعة الشريفة إلى مدرسته، وهي الآن محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٢ مصاحف ميكروفيلم ٣١٧٧، والوقفية الواردة عليها مؤرَّخة بتاريخ ٢٧ جمادى الآخر (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، ومقاس هذه الربعة ٤٠.١×٥٥.٤سم.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٤. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة ص٢٠ (لوحه ٩١).

(٤) هو سنجر السروري المعروف بالخاذن الأشرفي، وكان من المماليك المنصورية، فلم يزل يترقَّى إلى أن صار والي القاهرة، واستقرَّ فيما بعد مهمندار، ثم ولي البهنسا، ثم القاهرة بعد ذلك نحو ١٢ سنة آخرها (٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م).

العسقلاني: الدرر: ج٢ ص١٧٢.

(٥) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٨، مج ٤، ص ٧٩٧، السلوك: ج٢ ق٢ ص٣٨٧-٣٨٨.

(شكل ٢٣-٢٣مكرر)، وكملت عمارتها في سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م (لوحة ٤٧)، وكانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعًا وخيرًا[١]، وكذلك أقام الأمير أقبغا عبد الواحد[٢] خانقاة له بالقرافة[٣].

وأقام الأمير طقز دمر الحموي خانقاة له بالقرافة[٤]، وكذلك فعل الأمير

---

(١) الشجاعي: تاريخ ص١١٨. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٥، مج ٤، ص ٧٧٨-٧٨٢.
السيوطي: حسن المحاضرة: ج٢ ص٢٦٦.
ولا تزال هذه الخانقاة موجودة لليوم، إلا أنه لم يتبقَّ منها سوى القُبَّة والمنارة المعروفة بالمنارة الكبيرة أو الوسطى الواقعة غربي مقام الشيخ جلال الدين السيوطي بقرافة السيوطي.
تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٩ ص٢٠٧، حاشية ٣. وممن درَّس هذه الخانقاة عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة (١٩٩٧م)، ص٢٧٥-٢٩٠، محمد أبو العماميم، المئذنة القبلية وما حولها من الآثار خارج باب القارافة بالقاهرة، حوليات إسلامية، ٣٤/ ٢، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٤٨-٥٣؛
Layla Ali Ibrahem: The Great Hanqah of the Emire Qowsun in Cairo. (Sonderaruch aus den mitteilungen des Deutsdhen Archologischen stituts Abteilung Kairo – Band 30. I. 1974)pp. 38-57.

(٢)هو أقبغا عبد الواحد الناصري تقلَّد عدة وظائف منها: الجمدارية، والأستادارية، وشاد العمائر، ومقدَّم المماليك، وتزوج الناصر محمد أخته طغاي، وصودر في دولة المنصور أبي بكر، وولي نيابة حمص في أيام المظفر كجك، ثم إمرة دمشق ثم طلب إلى مصر في أوَّل دولة الصالح إسماعيل، فكان آخر العهد به، وذلك في عام (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، وهو صاحب المدرسة المجاورة للأزهر. العسقلاني: الدرر: ج١ ص٣٩١.

(٣) الشجاعي: تاريخ ص١١٨.
المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٦.

(٤) الأمير طقز دمر الحموي، أصله من مماليك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، بعثه للناصر محمد وهو شاب، فحظي عنده ورقَّاه حتى صار أمير مجلس، وولي نيابة السلطنة في أيام المنصور أبي بكر، وولي نيابة حلب ودمشق، ثم قدم إلى القاهرة ومات بها (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، ودُفن بخانقاته هذه.

=

أرغون[١] العلائي، والأمير نجم الدين بن شيروين المعروف بوزير بغداد[٢].

مما سبق نرى أن القطعة التي تلي قلعة الجبل، والممتدة من الإمام الشافعي إلى باب القرافة، والتي امتدت إليها يد التعمير بعد عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) كما سبق القول، قد اتَّصلت بالقرافة الصغرى وارتبطت بها وأصبحت جزءًا لا يتجزَّأ منها مُشكّلة الامتداد الطبيعي لها جهة الشمال جنوبي قلعة الجبل، كذلك امتدَّت هذه

=

المقريزي: السلوك: ج٢ ق٣ ص٦٨٨، ٦٩٨، وممن تولى مشيخة هذه الخانقاة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الحلبي، ثم المصري الحنفي المعروف بابن أمين الدولة الذي توفي (٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)، مما يدل على أن هذه الخانقاة استمرت في أداء وظيفتها حتى أواخر (ق ٨هـ/ ١٤م)، وربما بعد ذلك.

ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ص٤٥٠، ٤٥١.

ابن العماد: شذرات الذهب: ج٦ ص٣٣٦.

(١) أرغون العلائي: من مماليك الناصر، تنقل إلى أن استقر رأس نوبة الجمدارية عنده، ثم تزوج أم الملك الصالح إسماعيل، واستقرَّ لالاه فلما مات الناصر نفي إلى قوص، فلما ولي إسماعيل السلطنة صار هو أكبر الأمراء ومدبر المماليك، ثم اعتقل في دولة المظفر حاجي بالإسكندرية وتوفي (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

العسقلاني: الدرر: ج١ ص٣٥٣. المقريزي: السلوك: ج٢ ق٣ ص٧٥٦.

(٢) هو الأمير الوزير نجم الدين محمود بن علي بن شيروين، المعروف بوزير بغداد، قدم من بغداد إلى القاهرة، وولي الوزارة ثلاث مرات، فشكرت سيرته وعُرف بالمكارم، ومات مقتولًا بغزة في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م).

المقريزي: السلوك: ج٢ ق٣ ص ٧٥٥.

وكانت هذه الخانقاة بجوار تربة كافور الهندي التي كانت بالقرافة بسفح المقطم، إلا أنها اندثرت هي والخانقاة.

المقريزي: السلوك: ج٢ ق٣ ص٧٠٦، ٧٥٥.

ابن قاضي شهبة: تاريخ ص١٤٦-١٤٧.

القرافة في سفح المقطم إلى أقصى الشرق من الإمام الشافعي والإمام الليث بن سعد حيث يوجد قبر ابن عطاء الله السكندري[١] الذي يعتبره مؤرِّخو المزارات آخر شقة من شقق الزيارة في القرافة[٢]، ونعتبره نحن نقطة الارتكاز التي على ضوئها يمكن تحديد موضع القرافة الصغرى من بدايتها إلى نهايتها، وبما أن خانقاة بكتمر الساقي -المندرسة الآن- كانت تقع بالقرب من قبر ابن عطاء الله السكندري، وسيدي

---

(١)هو الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري الزاهد الكبير القدر، توفي في عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) حسبما يذكر ابن تغري بردي، أو عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) حسبما يذكر الشعراني، ودفن بالقرافة، وقبره معروف بها يقصد للزيارة.

ابن تغري بردي: النجوم: ج٨ ص٢٨.

الشعراني: الطبقات: ج٢ ص٢٣.

الزياني: الترجمانة الكبرى ص٢٠٨.

أبو الوفا التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، الطبعة الثانية ١٩٦٩، ص٣٤. هذا ولا يزال هذا القبر موجودًا للآن بقرافة سيدي علي أبو الوفا الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لقرافة الإمام الليث بن سعد، ويقع هذا القبر على بعد ٣٠٠م في الجنوب الشرقي لجامع سيدي على أبو الوفا، وبجوار القبر من الغرب يوجد قبر كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام، وبالقرب منه في الشمالي الغربي قبر محمد بن سيد الناس، وقبر عبد الله بن أبي جمرة.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٨ ص ٢٨٠، حاشية١.

Massignon; op Cit.p.67.

(٢) ابن الزيات: الكواكب السيارة ص٣١٩. السخاوي: تحفة الأحباب ص ٣٩٨.

هذا ويذكر على مبارك أن القرافتين الكبرى والصغرى متصلتين بالجبل حيث زاوية السادات الوفائية. علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص٦٧.

ومن المعروف أن قبر ابن عطاء الله السكندري يوجد في الجهة الجنوبية الشرقية من هذه الزاوية كما سبق القول.

محمد وفا، ومن ثَمَّ يمكن أن نعتبر أنها كانت تمثل آخر حدود القرافة الصغرى[١] وأقصى امتداد لها جهة الشرق.

وخلاصةُ القول أن القرافة ازدهرت في عهد دولة المماليك البحرية، ولا سيَّما على يد أمراء الناصر محمد، فعاد الازدهار إلى القرافة الكبرى من جديد وامتدت القرافة الصغرى إلى الشمال وإلى أقصى الشرق، كما اتَّصلت بالقرافة الكبرى والتحمت بها بحيث صارتا قرافة واحدة، ويؤكِّد ذلك ما ذكره القلقشندي من أن القرافة ممتدة في سفح المقطم، موقعها بين المقطم والفسطاط، وبعض القاهرة تمتد من قلعة الجبل آخذة في جهة الجنوب إلى بركة الحبش وما حولها[٢].

وقد وصفها كل من العمري والقلقشندي بأنها تربة عظمى، أو عظيمة[٣] وأضاف القلقشندي على ذلك، فذكر أن الناس بنوا بها الأبنية الرائعة، والمناظر البهجة والقصور البديعة، يسرح الناظر في أرجائها، ويبتهج الخاطر برؤيتها، وبها الجوامع والمساجد، والزوايا، والربط، والخوانق، وهي في الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن[٤].

---

(١) ويؤكد هذا ما ذكره المقريزي من أن هذه الخانقاة أقيمت بطرف القرافة في سفح الجبل مما يلي بركة الحبش، وفي قول آخر يذكر أنها بآخر القرافة مما يلي بركه الحبش. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٣. السلوك: ج٢ ق١ ص٢٧٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى: ج٣ ص ٣٧٨.

(٣) العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله) (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: تحقيق أيمن فؤاد سيد (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٥م) ص٢٢.
القلقشندي، صبح: ج٣ ص٣٧٨.

(٤) القلقشندي، صبح: ج٣ ص٣٧٩.

كذلك شهدت هذه المنطقة من القرافة إزدهارًا عمرانيًا ملموسا خلال العصر الجركسي ولا سيما منذ النصف الثاني من القرن ٩هـ/ ١٥م وهو ما تؤيده الأدلة الآثارية الباقية حتى الآن ومنها بقايا تربة جاني بك نائب جده (ت ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م) (أثر رقم ١٧١)، وبقايا تربة أزدمر من على باى الأشرفي (ت ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) (أثر رقم ١٧٤)، وبقايا تربة سودون أمير مجلس (المعرفة بقبة أبو سبحة) حوالي ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م (أثر رقم ٢٩٤)، وبقايا تربة محمد تمر الحسيني الزردكاش (ت ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م المعروفة بمدفن تمر باي الحسيني (أثر رقم ١٦١)، وسوف نقو م بدراسة تفصيلية لهذه الترب وغيرها من ترب عصر المماليك البحرية في القسم الثاني من هذا الكتاب (بمشيئة الله تعالى).

وعلى الرغم من طابع الوحدة الذي اتَّصفت به هذه القرافة في المصادر التاريخية إلا أنها قسمت إلى عدة تقسيمات، وبالتالي إلى عدة مُسمَّيات تشتهر بها الآن، فيُعرف الجزء الشمالي منها الواقع جنوب القلعة باسم مقابر المماليك[1]، أو قرافة المماليك القبلية[2]، أما عند العامَّة فيُعرف باسم قرافة سيدي جلال الدين

---

(١)Franz pascha: Kairo (Leipzig, 1903) P. 126.

(٢)فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية ص٣٢٨.

عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار، القاهرة ١٩٧١م، ص١٢٣، وعرفت بذلك لأنها تحتوي على عدة آثار مملوكية أغلبها من عصر المماليك البحرية، منها قُبَّة الصوابي وعلى بدر القرافي، وقبة وإيوان المنوفي، وبقايا خانقاة قوصون وكل من القبتين اللتين تنسبان إلى تنكزبغا (بحري وقبلي)، والتربة السلطانية، وبها من العصر الجركسي قبة سودون أمير مجلس وسوف نقوم بدراسة تفصيلية لهذه العمائر في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.

Comite de conservation des Monuments de l' art Arabe (exercices 1936-1940, le caire, 1944) p. 107 massignon: op. cit: p. 48.

=

السيوطي[١] (لوحات ٢-٤) (خريطة ٦).

وتتصل بها قرافة عمر بن الفارض بسفح المقطم بالأباجية[٢] من الشرق،

=

عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين ص١١٢-١١٤.

خريطة القاهرة للآثار الإسلامية، مقياس رسم ١/ ٥٠٠٠، مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٨ (٤٤/ ١٥٧).

(١) هو الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ولد (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، وكان كثير الاطلاع نادرة في عصره، بقية السلف عمدة الخلف، وبلغت عدة مصنفاته نحوًا من ستمائة تأليف، وتوفي في (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة، ولا يزال هذا القبر المشهور موجودًا إلى اليوم، ويرجع الفضل في حفظه من الدثور كل هذه المدة إلى اعتقاد الناس فيه وقصدهم إياه بالزيارة كل حين، كانوا يقيمون له حضرة كل أسبوع، ثم أبطلوها واقتصروا على المولد الذي اعتادوا عمله كل سنة في ليلة النصف من شعبان.

ابن إياس: بدائع: ج٤ ص٨٣.

ابن طولون (شمس الدين محمد) (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م).

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام): تحقيق محمد مصطفى: ق١، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٣٠١-٣٠٢.

أحمد تيمور: قبر السيوطي وتحقيق موضعه ص٤، ١٦.

على صافي حسين: الإمام جلال الدين السيوطي: القاهرة ١٩٧١م، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) هو الشيخ الإمام شرف الدين عمر بن الفارض، قدوة العارفين وسلطان المحبين، توفي بالجامع الأزهر (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، ودفن بالقرافة بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض (بناء عالٍ مستطيل، متَّصل بجبل المقطم، شبه الصومعة).

السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٨٠-٣٨٢.

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٥١٨.

النابلسي: الحقيقة والمجاز ص ١٩٦-١٩٧.

الزياني: الترجمانة الكبرى ص٢٠٧. كبريت المدني: رحلة الشتاء والصيف ص٨٧-٨٨

=

وقرافة السيدة نفيسة من الغرب، ويخترقها اليوم شارع قناطر المياه -مجرى العيون- الذي يمتد من فم الخليج، وينتهي بشارع الفتح عند باب قايتباي قرب مسجد السيدة عائشة[١].

أمَّا الجزء الأوسط فيعرف بقرافة الإمام[٢] الشافعي، وتتصل

=

ومن الآثار التي تحتوي عليها هذه القرافة مشهد إخوة يوسف، وبقايا مسجد اللؤلؤة، وقبة عمر بن الفارض، وقبة شاهين الخلوتي، وسبيل ومدفن سليمان أغا الحنفي من العصر العثماني.

عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين ص١٠٨، ١١١.

خريطة القاهرة للآثار الإسلامية. Massignon: op-cit, p. 49.

(١) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية: القاهرة ١٩٥٣م، ص٣٢٢.

فريد شافعي: العمارة العربية ص٣٢٨.

ومن الآثار الموجودة بهذه القرافة مشهد السيدة نفيسة، وقبة موفي الدين، وقبة الخلفاء العباسيين، وغير ذلك.

عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين ص١٢٣، ١٢٦.

Massignon: op-cit, p. 49.

(٢) أحمد أمين: قاموس ص٣٢٢، فريد شافعي: العمارة: ص٣٢٨.

عبد الرحمن زكي: قلعة ص١٢٣ ومما له دلالته أن هذه القرافة كانت تعرف زمن الاحتلال الفرنسي باسم مقابر أو ترب الإ مام وكان طولها نحو مرحلة وهو يعادل أكثر من نصف طول القاهرة.

جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٢٥.

ومن الآثار الموجودة بهذه القرافة مشهد يحيى الشبيه، والقاسم الطيب، وأم كلثوم، وقُبة الحصواتي، ومشهد الشافعي، والسادات الثعالبة، وغير ذلك من آثار 'لعصر العثماني.

Comite: op. Cit. p. 107. Massignon op. cit. p. 49.

بها من الجنوب قرافة الإمام الليث بن سعد[١] التي تتصل بها من جهة الشرق قرافة التونسي[٢].

وفي أقصى شرق قرافة الإمام الشافعي والليث وسكة حديد خط المحاجر توجد قرافة الشاطبي[٣]، وقرافة سيدي على أبو الوفا[٤].

---

(١) ومن الآثار الموجودة بهذه القرافة قبة ومسجد الليث بن سعد، وتربة الفخر الفارسي، وقبة ومسجد عقبة بن عامر، وقبة ذو النون المصري، وقبة الزيلعي، وقبة رابعة العدوية، وقبة فاطمة البيضاء. عبد الرحمن زكي: قلعة ص١٢٣، ١٣٨، خريطة القاهرة للآثار الإسلامية.

(2) Comite: op. Cit. pp. 107-108-108, Massignon: op. cit, P. 49 comite: op Cit, p. 108., Massigon: op – cit p. 62.

وقد عُرفت بهذا الاسم لأنه دفن في هذه المنطقة الإمام العلامة شهاب الدين أبو الفتح الطوسي، ولا يزال قبره معروفًا هناك للآن باسم الطونسي (تُلفظ وتعرف الآن بالتونسي) ومكتوب عليه: هذا مقام الإمام العالم العلامة الشيخ محمد أبو الفتح الطوسي، توفي في سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م).

ابن الزيات: الكواكب السيارة ص٢٢٧-٢٢٨.

السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٢٥، حاشية ٢.

(٣) هو الفقيه الإمام الشيخ أبو القاسم الشاطبي الرُّعيني، كان رجلًا صالحًا عاملًا، انتهت إليه الرياسة في وقته في قراءة كتاب الله العزيز، ومعرفة وجوه قراءته وتقريره وعلم الحديث والنحو واللغة، وكان متصدرًا بالمدرسة التي أنشأها القاضي الفاضل، وتوفي في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م)، ودُفن بتربة القاضي الفاضل بالقرافة، وقبره مشهور يُزار، وكان شافعيَّ المذهب.

ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤ ص٧١-٧٣.

السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٩١.

ابن العماد: شذرات الذهب: ج٤ ص٣٠١-٣٠٣.

(4) Comite: op. Cit. p. 108. Massignon: op cit. p. 66.

وهو الشيخ علي بن الشيخ أبي عبد الله محمد المعروف بابن وفا الشاذلي، وقد دفن الشيخ محمد =

ومن الجدير بالذكر أن هذه المسمَّيات لا تزال معتمدة في إدارة الجبَّانات التابعة لمحافظة القاهرة بعابدين.

(ب) القرافة شمال القلعة (أو عمران الصحراء خارج باب النصر):(خريطة رقم ٤)

لم يكن بالمنطقة الممتدة فيما بين باب النصر والريدانية[١] في أيام الخلفاء الفاطميين سوى مُصلَّى العيد[٢]، وكانت القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك،

=

(ت ٧٦٥هـ) وولداه علي الشاذلي وأبو العباس أحمد في القرافة في هذه التربة التي كانت تقع قبلي زاوية أبي السعود بن أبي العشائر، وإليهم تُنسب زاوية السادات الوفائية التي جدَّدها الوزير عزت محمد باشا بأمر السلطان عبد الحميد (١١٩١هـ- ١١٩٩هـ/ ١٧٧٧-١٧٨٤م) وجعلها مسجدًا يعرف بجامع السادات الوفائية.

السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٩٧-٣٩٨.

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٥٢٨.

الشعراني: الطبقات: ج٢ ص٢٣-٢٤.

ابن العماد: شذرات الذهب: ج٦ ص٢٠٦.

علي مبارك: الخطط التوفيقية: ج٥ ص٣١٥.

ولمزيد التفاصيل عن جامع السادات الوفائية انظر: موسوعتنا: العمارة الإسلامية: ج٢، جزء١، ق١، ص ٤٩٤-٥١٤.

(١) كانت بستانًا لريدان الصقلي أحد خُدَّام العزيز بالله، كان يحمل المظلَّة على رأس الخليفة، واختص بالحاكم، ثم قتله في ذي الحجة (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م).

المقريزي: الخطط: ج٢ ص١٣٩.

(٢) كان يقع في شرقي القصر الكبير خارج باب النصر، بناه القائد جوهر لأجل صلاة العيد في شهر رمضان (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)، ثم جدَّده العزيز بالله، وقد بقي إلى الآن -أي حتى زمن المقريزي- بعض هذا المصلى، واتخذ في جانب منه موضع مصلى الأموات ليوم، أي زمن المقريزي أيضًا. المقريزي: الخطط: ج١ ص٤٥١، مج ٢، ص ٤٧٨.

فلمَّا قدم أمير الجيوش بدر الجمالي أنشأ بحري مصلَّى العيد تربة عظيمة[١] فيها قبره وقبر ولده (لوحة ٥)، ثم تتابع الناس في إنشاء الترب هناك، حتى كثرت، ولم تزل هذه المنطقة مواضع للترب ومقابر أهل الحسينية والقاهرة إلى ما بعد السبعمائة[٢]، وكان يوجد في الجهة الشرقية من موضع هذه المقابر براحًا واسعًا يعرف بميدان القبق[٣]،

---

(١) كانت هذه التربة أوَّل تربة تُبنى خارج باب النصر، وكان خطُّها يُعرف برأس الكامل على حدٍّ قول السخاوي، أو رأس الطابية على حدِّ قول المقريزي، وقد دُفن بها بدر الجمالي عندما توفي في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، ولم يُعرف له قبر لطول الزمان، هذا ويعتقد أن هذه التربة هي المعروفة الآن بقبة الشيخ يونس السعدي الموجودة في قرافة باب النصر (لوحة رقم ٥).
المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٦٣. السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٠-٣٢.
تعليقات حسن قاسم في تحفة الأحباب للسخاوي ص٣٠.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٢٢، ١٣٩.
علي مبارك: الخطط التوفيقية: ج٢ ص٦٢-٦٣.
عبد الرءوف يوسف: حي الظاهر والحسينية: بحث في كتاب القاهرة، تاريخها، فنونها، آثارها، القاهرة ١٩٧٠م، ص٥٩.

(٣) هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها فيما بين الثغرة التي يُنزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر، ويُقال له أيضًا: الميدان الأسود، وميدان العيد، والميدان الأخضر، وميدان السباق، وهو ميدان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، بني به مصطبة في المحرم (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) عندما احتفل برمي النشاب وأمور الحرب، وحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك.
المقريزي: الخطط: ج١ ص٣٦١، ج٢ ص١١١، تحقيق أيمن فؤاد، مج ٣، ص ٣٦٩.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧ ص١٦٥-١٦٦.
علي مبارك: الخطط التوفيقية: ج١ ص٨٢.
جمال سرور: الظاهر بيبرس: القاهرة ١٩٣٨م، ص١٦٥.
عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٢٣-٢٢٤؛ محمد الششتاوي، ميادين القاهرة في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٦١-٧١.
Fernands (L): Three sufi foundations in 15 th century waqfiyya
=

وهو ما بين قلعة الجبل إلى قُبَّة النصر[١] تحت الجبل الأحمر[٢].

وقام الناصر محمد بعد عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) بترك النزول إلى هذا الميدان وهجره[٣]، وهكذا امتدت يد التعمير إلى هذه المنطقة التي كان يشغلها ميدان القبق،

=

(Annales Islamolofiques tome xv II ifao., le cairo, 1981) p. 144.

Ahbuseif (D.B): The North- eastern extension of Cairo under the Mamluks (I.F.A.O.-le cairo, 1981) P. 162.

ويشغل موضع هذا الميدان اليوم الآثار الموجودة بقرافة باب الوزير والمجاورين والغفير، وينتهي عند قُبَّة الأمير يونس الدوادار التي لا تزال موجودة بالجهة البحرية من خانقاة الناصر فرج. تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٧ ص١٦٥، حاشية ٣.

(١) هذه القُبَّة زاوية يسكنها فقراء العجم، وهي خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر بآخر ميدان القبق من بحرية جدَّدها الملك الناصر محمد على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٣٣، مج ٤ ص ٨١٤، ٨١٥

Abousif (D.B.) The Qubba An Aristocratic type of Zawiya (I.F.A.O.Tome xix le Cairo, 1938) p.2.

وكانت هذه القبة تقع في الفضاء الكائن شرقي خانقاة الناصر فرج، وقبة يونس الدوادار بينهما وبين الجبل الأحمر، وقد اندثرت هذه القبة.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٧، ص ٤١، حاشية١.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٣.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٣.

ويضيف المقريزي فيقول: إن الناصر محمد بعد أن ترك النزول إلى ميدان القبق بني مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش، وصار ينزل هنالك، ثم تركها في (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) وعاد إلى ميدان القبق وركب إليه على عادة من تقدمه من الملوك حتى امتلأ بالعمائر وبطل السباق منه، ورمى القبق فيه من آخر أيام الناصر. الخطط: ج٢ ص١١٣.

ويذكر السخاوي أن الناصر محمد ترك النزول إلى الميدان وهجره خشيةً على قبور المسلمين

=

فقام أمراء الناصر محمد أيضًا بالبناء فيها حتى امتلأ موضع الميدان بكثرة العمائر، وأصبحت الصحراء في القرن ٩هـ/ ١٥م مدينة عظيمة على حدٍّ قول أبو المحاسن ابن تغري بردي[١].

وكان الأمير شمس الدين قراسنقر[٢] هو أوَّل من ابتدأ بالعمارة في هذا الميدان فاختطَّ تربة[٣] وعمل لها حوض ماء السبيل يعلوه مسجد، ثم اقتدى به الأمراء

=

من أن توطأ. السخاوي: تحفة الأحباب ص٣١.

ولعل هذا ينفي ما أشار إليه البعض من أن "قرافة المماليك الواقعة في صحراء المماليك إلى الشرق من طريق صلاح سالم الحالي لم تنشأ إلا في عصر المماليك الشراكسة مع نهاية القرن الثامن الهجري حيث بدأ سلاطين المماليك وأمراؤهم في إنشاء المساجد والخوانق بهذه المنطقة وألحقوا بها مدافن لهم".

أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني لمدينة القاهرة، ص ٥٧؛ وانظر أيضًا تعليقاته في كتاب وصف مدينة القاهرة لجومار، ص ٢٢٤-٢٢٥ حاشية ١.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٩ ص١٨٨.

(٢) هو الأمير شمس الدين قراسنقر بن عبد الله الجوكندار المنصوري، ترقَّى في خدمة المنصور قلاوون إلى أن تولى نيابة السلطنة بحلب في (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).

وعزله الأشرف خليل عنها (٦٩١هـ/ ١٢٨٨م)، وصار ينتقل من حال إلى حال إلى أن مات بالإسهال في عام (٧٢٨هـ/ ١٤٢٧م). ومما يُنسب إليه مدرسته تجاه خانقاة سعيد السعداء فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر بالجمالية، والتي لا يزال باقيًا بعض أجزائها. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٣٨٨-٣٩٠.

(٣) كانت هذه التربة بجوار تربة الصوفية، وكان حوض ماء السبيل بها يجاور باب تربة الصوفية، وقد أدركه المقريزي عامرًا هو وما فوقه، وقد تهدَّم وبقيت منه بقية زمن المقريزي، أما الآن فلا يوجد لهما أثر بالمرَّة.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٣. السخاوي: تحفة ص٣١-٣٢.

والأجناد والخوندات والأعيان وغيرهم، حتى امتلأ الميدان من كثرة العمائر[١].

وقام صوفية الخانقاة الصلاحية سعيد السعداء[٢] بتعمير تربة لهم، فأخذوا قطعة قدر فدانين وأداروا عليها سورًا من حجر، وجُعل مقبرة لمن يموت منهم، ثم أضافوا إليها قطعة أخرى من تربة قراسنقر بعد (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)[٣].

---

(١) المقريزي: السلوك: ج٢ ق٢ ص٥٤٠.
ابن تغري بردي: النجوم: ج٩ ص١٨٧-١٨٨.
محمد مصطفى زيادة: حركة البناء والتعمير ص٢٤٤.

(٢) كانت هذه الخانقاة بخط رحبة باب العيد من القاهرة، كانت تعرف أولًا في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، وهو الأستاذ قنبر -يقال: عنبر- أحد الأستاذين المحنكين خدَّام القصر، عتيق الخليفة المستنصر، قُتل في شعبان ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، ثم عمل صلاح الدين هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشامية، ووقفها عليهم في عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وولي عليهم شيخًا، وكانت أول خانقاة بمصر، وعرفت بدويرة الصوفية، ونُعت شيخها بشيخ الشيوخ، وبعد المحن التي حدثت عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) لقب كلُّ شيخ خانقاة بشيخ الشيوخ. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤١٥. ابن عبد الظاهر: الروضة ص٤٩-٥٠. السيوطي: حسن المحاضرة: ج٢ ص٢٦٠-٢٦١. عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية: ج١ ص١٢٧-١٥٨.

(٣) يذكر محقق الخطط أن تربة الصوفية كانت في الموضع الذي يعرف الآن بجبانة باب النصر خارج باب النصر، وللأسف فقد أزيلت هذه التربة عام ٢٠٠٢م بغرض توسيع الطريق المعروف بشارع جلال الواقع بمحاذاة سور القاهرة الشمالي ليربط بين شارع المنصورية شرقا وشارع الجيش غربا.
تعليقات أيمن فؤاد سيد في الخطط المقريزية مج ٤، ص ٩١٩ حاشية ١.
وهذا القول يجانبه الصواب فإن تربة الصوفية كانت في الموضع الذي تشغله اليوم مبنى الإدارة المركزية للأمن المركزي بالدراسة والمباني المجاورة له التابعة لوزارة الداخلية فيما بين شارع الجعفري وكوبري الفرودوس وهي الأبنية المحصورة بين شارعي صلاح سالم شرقًا وشارع المنصورية غربا وكان يوجد تجاه تربة الصوفية تربة الأمير سيف الدين كوكاي
=

وما برح الناس يقصدون تربة الصوفية هذه لزيارة من فيها من الأموات، ويرغبون في الدفن فيها إلى أن ولي مشيخة الخانقاة الشيخ شمس الدين[١] البلالي، فسمح لكل أحد منهم أن يقبر ميته بها على مال يؤخذ منه، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة، ومن لم تشكر طريقته، فصارت مجمعًا للنسوان ومحلًا للعب، ولم يكن في هذه الصحراء تربة مثلها بما جُمع فيها من العلماء والمحدثين والأولياء.

وعمَّر الأمير نظام الدين[٢] آدم تجاه تربة قراسنقر مدفنًا وحوض ماء السبيل ومسجدًا معلَّقًا[٣]، وعمَّر الأمير طاجاي (طاجار)[٤] الدوادار على رأس القبق مقابل

=

(دارسة) التي كانت تقع في الحد البحري (أي الغربي) لمنشأة السلطان أينال التي لا تزال باقية تجاه كوبري الفردوس بالدراسة.

(١) هو الشيخ شمس الدين البلالي محمد بن علي بن جعفر العجلوني، نزيل القاهرة، وُلد قبل (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، واشتغل بالعلم قليلًا، وسلك طريق الصوفية، فمهر، وصارت له إحياء علوم الدين ملكه، واختصره اختصارًا حسنًا، ووُلِّيَ مشيخة سعيد السعداء، وكان خيرًا معتقدًا، مات في شوال (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، وقيل: إنه مات في (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م).

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٥٢٩، ج٢ ص٢٦١.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤١٥-٤١٦، ٤٦٤. السخاوي: تحفة الأحباب ص٣٢.

(٢)الأمير نظام الدين آدم، هو أخو الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة الذي توفي عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، أما هو فلم أعثر له على ترجمة فيما وقع بين يدي من مصادر.

(٣)المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٣-٤٦٤.

المسجد المعلق: هو المرتفع مدخله عن مستوى أرضية الطريق، ويصعد إليه بسلالم، وتوجد أسفله عادة عدة حوانيت موقوفة عليه، ومن أول المساجد المعلقة بمصر جامع الأقمر، وجامع الصالح طلائع من العصر الفاطمي.

عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسني (مجلة كلية الآداب: المجلد ١٨: ج٢، ديسمبر ١٩٥٦م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٩م، ص٢، ٢٢٢.

(٤) طاجاي، أو طاجار المارديني الناصري، أمَّره الناصر عشرة في (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، ثم أمَّره

=

قُبة النصر تربة[١]، وأقام الأمير مجد الدين السلامي تربته أيضًا[٢].

وعمَّر الأمير طشتمر الساقي[٣] (حمص أخضر) على الطريق تربة[٤] وبنى الأمراء إلى جانبه عدة تُرَب[٥]، وبنى الطواشي محسن[٦] البهاء تربة عظيمة (شكل ٢٢ مكرر)، وبنى الأمير طغاي تمر النجمي[٧] تربة وجعلها خانقاة، وأنشأ بجوارها حمَّامًا وحوانيت

=

طبلخاناه بعد مُدَّة طويلة، ثم استقرَّ دويدارًا بعد بغا، فتمكن من السلطان تمكنًا كبيرًا، ثم تمكن من المنصور أبي بكر، وقُتل بالإسكندرية (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م).

العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢١٣-٢١٤.

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامي، تاجر الخاص في أيام الملك الناصر محمد، كان مولده في السلامية من أعمال الموصل (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، مات في داره من درب السلامي في (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، ودفن بتربته خارج باب النصر.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٣، ٤٦٤.

(٣) هو طشتمر البدري الساقي الناصري حمص أخضر؛ لأنه كان يحب أكله فعُرف به، وكان الناصر اشتراه صغيرًا، فرباه، وحظي عنده حتى إنه أمره أن يمسك تنكز نائب الشام، ففعل، ثم ولاَّه نيابة حلب (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، ثم استقر في نيابة مصر، وهو الذي عمَّر الجامع بالصحراء، والحمام بالزريبة والربع بالحريريين، مات في أثناء عام (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) (لوحة ٤٦)، (شكل ٢٢مكرر).

العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢١٩-٢٢٠.

(٤) لم يتبقَ من هذه التربة سوى قُبَّة مؤرَّخة بعام (٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م).

(٥) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

(٦) لم أستطع العثور على ترجمة لهذا الأمير فيما وقع بين يدي من مصادر.

(٧) طغاي تمر النجمي: كان دوادار الصالح إسماعيل بن الناصر محمد، فلما مات الصالح استقرَّ على حاله في أيام أخويه الملك الكامل شعبان والمظفر حاجي، قُتل مع بعض الأمراء وهم في

=

وأسكنها للصوفية والقرَّاء[١]، وعمَّر ابن فضل الله تربته ظاهرة القاهرة[٢].

وبَنَتْ خوند[٣] طغاي تربة تجاه تربة طشتمر[٤] الساقي، وجعلت

=

طريقهم إلى الشام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م). وعمَّر الخانقاة الدويدارية بالصحراء المعروفة بالنجمية خارج باب البرقية فيما بين قلعة اجبل وقُبَّة النصر.

العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢٢٣.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٥.

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤، مج ٤، ص ٧٨٢-٧٨٣.

ومما يؤسف له أن معظم هذه المنشآت مندثرة ولم يبق لها أيُّ أثَر.

(٢) هو محيي الدين يحيى بن الصاحب جمال الدين أبي المآثر فضل الله كاتب السرِّ في أيام الملك الناصر، توفي (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، ودفن ظاهر القاهرة، ثم نقل إلى تربتهم في سفح قاسيون.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٥٦-٥٧.

وإذا كان المقريزي لم يحدِّد لنا مكان هذه التربة بالضبط، إلا أنه تبين أنها كانت تقع بالجهة الشمالية الغربية من منشأة قرقماس أمير كبير، فقد جاء ذكرها في وثيقة هذه المنشأة عند وصف حدودها، فذكرت أن الحدَّ البحري ينتهي بعضه إلى تربة ابن فضل الله وبعضه لزقاق هناك وفيه خوخة، وكانت قريبة من الباب الثاني للحوش الخلفي للمنشأة.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير قرقماس وملحقاتها: رسالة دكتواره غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٣٩، الملحق الوثائقي، ص٢٥-٢٧.

(٣) هي طغاي الخوند الكبرىٰ زوجة الناصر محمد وأم ابنه أنوك، ويقال: إنها أخت الأمير أقبغا عبد الواحد، وكانت بديعة الحسن باهرة الجمال، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك الترك بمصر، ولم يدمْ السلطان عى محبة امرأة سواها، ولما مات الناصر استمرت عظمتها بعده إلى أن ماتت في (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، ودفُنت بتربتها هذه.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٥-٤٢٦، مج ٤، ص ٧٨٤-٧٨٦.

(٤) يلاحظ أن تربة طشتمر لا تواجه تربة خوند طغاي كما ذكر المقريزي، بل منحرفة عنها نحو الجهة الشمالية، أما تربة خوند طولبية فهي التي تواجه تربة طشتمر من الجهة القبلية، ولا

=

لها وقفًا...[١] (شكل ٢٤)، (لوحة ٤٨)، وكذلك عمَّر الأمير سيف الدين كوكاي[٢] تربة، وأيضًا الأمير طشتمر[٣] طللية، أو طلكية فعل ذلك[٤]، وعمَّر الأمير

=

يفصل بينهما سوى الشارع، أو تربة كزل الناصري التي تواجهها تمامًا من الجهة الشرقية.

حسن عبد الوهاب: أثر المرأة في العمارة الإسلامية: (مجلة الهندسة السنة ١٧- العدد ٧ – ١٩٣٧م) ص٢٤٣، حاشية ١.

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

هذا ونلاحظ أن هذه التربة لا تزال موجودة لليوم، إلا أن معظم ملحقاتها مندثرة، ولم يعُدْ يبقَ منها سوى قُبَّة الدفن، ملحق بها إيوان وبقايا قُبَّة أخرى لم يبقَ منها سوى مربعها ومنطقة انتقالها.

وممن قام بدراسة هذه المنشأة دراسة أثرية حسن عبد الوهاب: أثر المرأة ص٢٤٣-٢٥٠.

عبد الرحمن فهمي: بين قباب الخوندات المملوكية: (منبر الإسلام، العدد ٧، السنة ٣١ – ١٩٧٣م) قبة خوند طغاي ص٢٤٥، ٢٤٨.

دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس في مصر ص١٢٢، ١٢٥. عاصم محمد رزق: خانقاوات: ج١ ص٢٩١-٣٠٢.

(٢) كوكاي صهر تنكز نائب الشام كان متمولا جدا، مات في الطاعون العام (الوباء الأسود) ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م.

العسقلاني، الدرر، جـ ٢، ص ٢٧٠. وكانت هذه التربة تقع في الحد البحري (أي الغربي) لمنشأة السلطان أينال التي لا تزال موجودة لليوم فتذكر الوثيقة أن الحد البحري (أي الغربي) ينتهي إلى التربة المعروفة بالأمير كوكاي.

عبداللطيف إبراهيم، الوثائق في خدمة الآثار، ص ٤٥٠؛ سامي أحمد حسن، السلطان إينال وأثاره المعمارية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٩٧٦م)، الملحق الأول من الرسالة، ص ٦.

(٣) هو طشتمر طللية أو طلكية الناصري، كان من مماليك الناصر، ثم ترقَّى في الخدم إلى أن أُمِّر (٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م)، واستقرَّ أمير سلاح في سلطنة المظفَّر حاجي، ومات (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢٢٠.

(٤) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٠.

الجيبغا المظفري خانقاة له بالصحراء[١]، وبنى الأمير[٢] منكلي بغا تربة له بالصحراء[٣] أيضًا، وأقام الأمير مسعود[٤] بن خطير تربة بجوار تربة الصوفية،

---

(١) الجبيغا المظفَّري الخاصكي: تقدم في أيام المظفَّر حاجي بن الناصر محمد تقدمًا كثيرًا بحيث لم يشاركه أحد في رتبته، وأقرَّه الناصر حسن عليها، وصار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر والنهي، قبض عليه الأمراء وسجن بقلعة دمشق ثم وسط بمرسوم السلطان (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، وكانت هذه الخانقاة خارج باب النصر فيما بين قُبَّة النصر وتربة عثمان بن جوشن السعودي، ولم يعُدْ يبقَ لها أي أثر. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢١-٤٢٢، مج ٤، ص ٧٦٥، ٧٦٦.

ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص٤٤، ٤٦.

(٢) منكلي بغا الناصري الفخري: كان الناصر رقَّاه إلى أن صيَّره أحد الأمراء بدمشق (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، ثم ناب بطرابلس وعظمت منزلته في أيام الناصر حسن الأولى، وصار من أكابر أمراء المشورة بمصر، واعتُقل في دولة الصالح صالح (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م)، ومات (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م).

العسقلاني: الدرر: ج٤ ص٣٦٧.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

ولا تزال هذه التربة باقية حتى الآن في الجهة الجنوبية الغربية من منشأة السلطان قايتباي، وبجوارها قُبة سعد الدين بن غراب، وتتمثل البقايا الموجودة من هذه التربة في مساحة مستطيلة يبدو من بقاياها أنها كانت معقودة بقَبْو، ويتوسط صدرها المحراب، وتعلوه نافذة ثلاثية الفتحات معقودة كلٌّ واحدة منها بعقد منكسر، وعلى جانبي هذه المساحة الوسطى إيوانين صغيرين -سدلتين- كل منهما عبارة من مساحة مستطيلة معقودة بعقد مدبب يمتدُّ للداخل على هيئة قبو، وبالإيوان البحري تركيبة رخامية مؤرخة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م.

(٤) مسعود بن أوحد بن الخطير الأمير بدر الدين وُلد (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، وولى عدة وظائف منها: إمرة عشرة، والحجوبية، وإمرة طبلخاناه، وناب بغزة ثلاث مرات، وناب بطرابلس، ومات (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م)، وهو صاحب جامع الخطيري ببولاق.

المقريزي: الخطط: ج٢ ص٣١٢. العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٣٤٨.

وعمل لها منارة من حجارة لا نظير لها في هيئتها[١]. وعمَّر الأمير[٢] تنكزبغا أمير مجلس الأحكام تربته المؤرخة بعام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م بالصحراء، (لوحة ٥٠)

---

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ٤٦٤.

(٢) هو تنكزبغا المارداني، كان شاد الشربخاناه عند الناصر حسن، وكان حظيًّا عنده، وأمَّره مائة، وارتفع قدره في ولاية الناصر حسن الثانية، وعينه لنيابة الشام، فما ارتضاها، ثم تعلل، ودام مرضه قريبًا من سنة، ومات في ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م.

العسقلاني: الدرر: ج١ ص٥٢٠.

هذا ولا تزال بقايا هذه التربة موجودة للآن في شارع التنجزي بمنشية ناصر شرق خط الأوتوستراد، وتتمثل هذه البقايا في وجود واجهات هذه التربة الأربعة، ويوجد المدخل في الواجهة الشمالية الغربية، وهو في دخلة معقودة بعقد مُدَّبب على جانبيها مكسلتين، وتحمل عضادتي المدخل النقش الإنشائي للتربة المؤرخ (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، وعلى يمين المدخل تُوجد المئذنة، وهي عبارة عن مربع ممتد، ثم طابق ثان مثمن به دخلات ثمانية، ثم ثلاث صفوف من المقرنصات، اتَّخَذَ الصف الأخير منها هيئة ترس مشرشر، ثم بعد ذلك الخوذة المضلعة وهي على هيئة المبخرة.

أما من الداخل فتوجد مساحة مستطيلة مكشوفة بالجهة الجنوبية الشرقية منها إيوان صغير يتوسط صدره المحراب، ويتقدم المحراب قُبة للدفن عبارة عن مساحة مربعة تحتوي على ٤ مداخل معقودة بعقد مدبب، ولا تحتوي على محراب اعتمادًا على المحراب الخاص بالإيوان الذي يواجه مدخلها الجنوبي الشرقي، ويعلو المربع منطقة الانتقال من أربعة حنايا ركنية كبيرة، وتأتي بعد ذلك الرقبة، ثم الخوذة ذات التضليعات، وفي الجهة الشمالية الغربية بجوار المدخل لا تزال توجد خمس حجرات متجاورة لعلها كانت خلاوى، كلٌّ منها عبارة عن مساحة مستطيلة بصدرها فتحة للإنارة والتهوية على هيئة مزغل تشرف على الشارع، وربما كانت توجد خلاوى مشابهة على جانبي الصحن كما يتضح من خلال البقايا الموجودة.

ومما هو جدير بالذكر أنه توجد رسالة ماجستير حول منشآت الأمير تنكزبغا الدينية بمدينة القاهرة (آداب طنطا ١٩٩٧) للطالب/ جمال فتحي عيد، وهي من بين الرسائل العديدة التي نوقشت في الآونة الأخيرة والتي ما كان لها أن تسجل أصلا وسوف نفرد لها ولغيرها دراسة نقدية مطولة بمشيئة الله تعالى.

وعمرت خوند[١] طولبية تربتها (شكل ٢٥، لوحة ٥٢) بجوار تربة خوند طغاي، ودُفنت بها عندما تُوفيت عام، (٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)[٢]، وعمر الأمير السيفي يلبغا العمري تربته بالصحراء بالقرب من تربة خوند طغاى[٣].

وعمَّر الأمير طيبغا[٤] الطويل تربته بالصحراء[٥] قبل ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م أيضًا،

---

(١) هي خوند طولبيه الناصرية التترية زوجة السلطان الناصر حسن، ثم من بعده زوجة مملوكة يلبغا العُمَري، توفيت (٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) ودُفنت بترتبها هذه، وكانت من أجل نساء عصرها.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١١ ص٨٤.

(٢) لم يبق من هذه التربة سوى القُبَّة، وممن قام بدراستها حسن عبد الوهاب: أثر المرأة ص٢٥٠، ٢٥٤.
عبد الرحمن فهمي: بين قباب الخوندات المملوكية: (منبر الإسلام، العدد ٨، السنة ٣١، ١٩٧٣م) قُبَّة خوند طولبيه ص٢٠٦- ٢١٠.
Abd El-Raziq (A.): Un Mausolee feminim Dan's Egypt Mamluke pp. 4-8.

(٣) حجة وقف السيفي يلبغا العمري (أوقاف رقم ٥٤ج)؛ ومماله دلالته أنه وردت الإشارة إلى هذه التربة بحجة الوقف بلفظة "الحوش الذي وقفه الواقف المذكور وهذا الحوش يعرف بالذهبي"، وقد وقف الحوش للفقراء والتعبد و الذكر والصلاة ولاستقرار الوظائف التي تذكر فيه ولدفنه ودفن من يرى دفنه فيه ودفن أولاده وذريته ونسله وعقبه وغيرهم من أهل الخير، وفي حجة أخرى وردت الإشارة بصيغة "التربة الكائنة بالحوش الذي وقفه الواقف.." وسوف نقوم بمناقشة ذلك تفصيلا في القسم الثاني من هذا الكتاب (بمشئية الله تعالى).
انظر: حجة وقف السيفي يلبغا العمري (وقف رقم ٥٤ ج) (وأوقاف رقم ٧٣٢ج)، وانظر أيضًا محمد محمد أمين، فهرست وثائق القاهرة، ص ٤٢٣-٤٣٨؛ هاني محمد رضا حمزة، الترب المملوكية، ملحق رقم ١ ورقم ٢.

(٤) هو طيبغا الطويل، أحد الأمراء الكبار في دولة الناصر حسن، أمَّره هو ويلبغا جميعًا طلبخاناه (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)، ثم قدَّمهما بعد صرغتمش، ولما قتل السلطان حسن استقرَّ طيبغا أمير سلاح، ثم أمسكه يلبغا وحبسه بالإسكندرية (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، ثم أُفرج عنه بعد مقتل يلبغا، وأعطى نيابة حلب (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م)، ومات في نفس السنة. العسقلاني: الدرر: ج٢ ص٢٣١.

(٥) لم يتبق من هذه التربة سوى الواجهة الشمالية الغربية ويتوسطها باب الدخول، وتحمل =

(لوحة٦) وأقام الأمير طشتمر[١] الدوادار تربة بالقرب من تربة خوند طغاي[٢].

وهكذا تبارى أمراء الناصر محمد وأمراء خلفائه من بعده في بناء الترب حتى اتصلت العمارة من ميدان القبق إلى تربة الروضة[٣] خارج باب البرقية[٤].

=

عضادتيه نقش الإنشاء (البسملة، أمر بإنشاء هذه التربة المباركة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري المحترمي المجاهدي المخدومي المرابطي المثاغري المؤيدي عمدة الملوك، اختيار السلاطين العلاي طيبغا أمير سلاح الملكي الأشرفي).

Mehren:op cit: I-Del. Kgobenhavn, 1869 p. 62.

Berchem: op. cit. p. 277.

أما داخل التربة فقد أصبح مجرد حوش كبير للدفن.

(١) هو الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبد الله العلائي الدوادار، كان من أجلّ الأمراء، وهو أوّل دوادار وليها بتقدمة ألف، ثم ولي نيابة الشام، ثم أتابك العساكر المصرية، توفي (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م).

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١١ ص٣٠٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم: ج١١ ص٤٠.

وتربة طشتمر العلائي الدوادار غير تربة طشتمر حمص أخضر السابقة؛ لأن هذا غير ذلك.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج١١ ص٤٠، حاشية ٣.

(٣) تربة الروضة هي الترب الواقعة بين التلول وسور القاهرة الشرقي بقرب باب الغريب الذي هو الآن -أي زمن علي مبارك- أحد أبواب القاهرة، ويغلب على الظن أنه كان في محل هذا الباب أو بالقرب منه باب البرقية، وهذه التربة -أي الروضة- مكانها اليوم ترب المجاورين وقايتباي، وهذه التلول التي خلف سور القاهرة الشرقي وضعها الحاكم بأمر الله خوفًا من نزول السيول من الجبل إلى القاهرة. على مبارك: الخطط: ج٢ ص٢٤٢-٢٤٣.

أما محمد رمزي فيذكر أن الروضة تقتصر فقط على المنطقة التي تعرف الآن بقرافة المجاورين شرقي تل قطع المرأة (نهاية نفق الدراسة حاليًا)، ومن الآثار التي توجد بها بقايا تربة خوند طغاي، وخوند طولبيه، وقبة نصر الله، وقبة أزرمك الناشف.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج١١ ص٧، حاشية٤.

(٤) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

=

مما سبق نرى أن يد التعمير قد مَسَّت الصحراء مسًّا مباشرًا بحيث أصبحت مدينة عظيمة، وليس هذا بغريب على عصر الناصر محمد الذي كثر فيه الإنشاء والتعمير في داخل مصر والقاهرة وظواهرهما، فاتَّصلت عمائرهما واندمجت فصارتا بلدًا واحدًا، وفي ذلك يقول المقريزي: واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارتا بلدًا واحدًا يشتمل على جميع أنواع العمائر، متصلًا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر[١] إلى بساتين الوزير[٢] قبلي بركة الحبش، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى

=

ويمكن القول: إن عبارة المقريزي هذه ليست دقيقة؛ لأن ميدان القبق كان يشغل المنطقة الممتدة من القلعة حتى قُبَّة يونس الدوادار، وبالتالي فإن تربة الروضة تُعدُّ جزءًا من ميدان القبق، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن موضع الميدان شغل كلُّه بالترب، فكيف تتَّصل العمارة إذن من ميدان القبق إلى تربة الروضة وهي مقامة على جزء من أرضه.

(١) هذا المسجد خارج القاهرة مما يلي الخندق، عُرف قديمًا بالبئر والجميزة، وعُرف بمسجد تبر، وتسميه العامة: التبن، وهو خطأ، وتبر هذا من أمراء كافور الإخشيدي، وموضعه خارج القاهرة قريبًا من المطرية. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤١٣، مج ٤، ص ٧٢١-٧٢٢؛

Abouseif (D.B): The north-eastern extension of cairo p, 158,

ويذكر حسن قاسم أن هذا المسجد لا يزال موجودًا حتى اليوم بالمطرية بشارع البرنس، ويُعرف بجامع السيد إبراهيم، وعليه ضريح يُزار.

تعليقات حسن قاسم في تحفة الأحباب للسخاوي ص١٠، حاشية١. وفي قول آخر أن بقايا هذا المسجد ما زالت قائمة في الشمال الغربي لمحطة مترو حمامات القبة بالقرب من قصر القبة وتعرف بزاوية محمد التبري التي أنشأتها السيدة شفق نور والدة الخديوي توفيق سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م. علي مبارك، الخطط، جـ ٦، ص ٥٩، ١٣٠؛ تعليقات أيمن فؤاد سيد في الخطط، مج ٤، ص ٧٢١ حاشية ٢. وكان لهذا المسجد دور كبير في الأحداث المرتبطة بالعصر المملوكي أثناء ذهاب وإياب السلاطين والأمراء من وإلى القاهرة.

المقريزي: السلوك: ج١ ق٣ ص٦٨٤، ٧٥٤-٧٥٥، ٨٢٢-٨٢٣، ج٢ ق١ ص٦٣، ١١٩.

(٢) توجد هذه البساتين في الجهة القبلية من بركة الحبش، وهي قرية فيها عدَّة مساكن وبساتين

=

الجبل المقطَّم[١].

=

كثيرة، وبها جامع تُقام فيه الجمعة، وعُرفت بالوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي الذي تولَّى الوزارة في عهد المستنصر (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) ولُقِّب بالوزير الأجَلّ، وصُرف عنها (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م)، وولي بعد ذلك ديوان الإنشاء ولم يزل نابه القدر حتى مات (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م).

المقريزي: الخطط: ج٢ ص١٥٧-١٥٨

وهذه البساتين هي ضاحية البساتين الحالية جنوب القاهرة.

(١) المقريزي: الخطط: ج١ ص٣٦٥، مج ٢، ص ٢٢٤.

obeikandl.com

ثالثًا: ازدهار عمران الصحراء في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) (خريطة رقم ٤، ورقم ٥)

يذكر أستاذنا الدكتور نجيب أن كثيرًا من سلاطين وأمراء الجراكسة[١] حرصوا على أن يدفنوا في الصحراء على الرغم من أنه كانت لهم منشآت دينية داخل القاهرة تحتوي على مدافن لهم، إلا أنهم آثروا أن يُدفنوا بالصحراء حبًّا في شيخ من مشايخ الصوفية الذين كانوا يعتقدون فيهم، فأرادوا أن يتبركوا بهم في آخرتهم، مثلما كانوا كذلك في دنياهم، ومصداق ذلك ما أوصى به السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٩م) من أن يدفن تحت أقدام المتصوفة في الصحراء، رغم بنائه لمنشأة دينية تحتوي على مدفن ذي قُبَّة -بشارع النحاسين- فأقيم على قبره خيمة كبيرة، مما يدل على أنه لم يكن يوجد مدفن مُعَدّ قبل ذلك لدفنه في هذا المكان، بل أُعِدَّ على عجل تبعًا لوصيته التي أمر فيها ببناء منشأة كبيرة في الصحراء[٢].

والواقع أن تفضيل الدفن في الصحراء، والاتجاه إلى البناء فيها لم يكن وليد عصر الجراكسة، وإنما حدث قبل ذلك منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون كجزء من النهضة العمرانية التي شملت مدينة القاهرة وظواهرها في عهده كما سبق القول، كما أن استحباب دفن الميت بجوار قبور الصالحين والعلماء والأولياء للتبرك بهم أمر قد شاع حدوثه في عصر سلاطين المماليك، سواء أكانت المنشأة في داخل مدينة القاهرة أو في الصحراء، أي إن هذا الأمر لم يكن قاصرًا فقط على الصحراء، لا سيَّما وقد

---

(١) ومن هؤلاء السلاطين: برقوق وبرسباي وقايتباي، ومن الأمراء: سعد الدين بن غراب، والقاضي عبد الباسط، وقراقجا الحسني.
محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير قرقماس وملحقاتها، الملحق الوثائقي ص١٤٩-١٥٠.

(٢) محمد مصطفى نجيب: مدرسة، الملحق الوثائقي ص١٤٩-١٥٠.

وردت أحاديث نبوية في هذا الصدد منها: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**» وقول النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيوَرِّثه**».

وقوله ﷺ: «**إن الميت ليتأذى بالجار السوء كما يتأذى به الحي**». فلعل بركة الجوار -وهو الغالب- أن تعود على من جاورهم ونزل بساحتهم[١].

وفي الحقِّ أن معظم منشآت الصحراء أُقيمت بجوار قبور للصالحين كما أُعدَّت بها أحواش لدفنهم، ودفن غيرهم من عتقاء السلاطين والأمراء كما سيتبين ذلك في سياق هذا الفصل.

ومهما يكن من صِحَّة هذا الأمر، إلا أنه لم يكن السبب الرئيسي والوحيد للاتجاه إلى البناء والدفن في الصحراء، بل اشتركت معه عوامل أخرى يمكن أن نتلمَّسها باستقراء وتحليل ما ورد في ثنايا المصادر المملوكية.

ويمكن القول بادئ ذي بدء: إنه حدث أنه أفتى بعض الفقهاء، وعلى رأسهم ابن الجميزي[٢] وغيره بهدم كل بناء بسفح المقطم وقالوا: إنه وقف من عمر -رضي الله عنه- على موتى المسلمين، وذكر ابن الرفعة[٣] عن

---

(١) ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي) (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، المدخل (القاهرة ١٩٨١م) مج٣ ص٢٥٧. السخاوي: تحفة الأحباب ص٥.

(٢) هو بهاء الدين أبو الحسن علي بن هبة الله بن سلامة اللخمي المعروف بابن الجميزي، كان فقيهًا مقرئًا محدثًا، وكان عالمًا انتهت إليه مشيخة العلم في زمانه بالديار المصرية، مات بمصر (٦٤٩هـ/ ١٢٥٢م). السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٤١٣.

(٣) هو الإمام نجم الدين أبو العباس أحمد بن الرفعة واحد مصر، وثالث الشيخين الرافعي، والنووي في الاعتماد عليه في الترجيح، وكان إمام مصر بل سائر الأمصار وفقيه عصره في سائر الأمصار توفي (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، ودفن بالقرافة.

=

شيخة الظهير التزمنتي[١] عن ابن الجميزي قال: جهدت مع الملك الصالح[٢] في هدم ما أحدث بالقرافة من البناء، فقال: أمر فعله والدي لا أزيله قال: وهذا أمر عمت به البلوى وطمت، ولقد تضاعف البناء حتى انتقل إلى المباهاة والنزهة، وسلطت المراحيض على أموات المسلمين من الأشراف، والأولياء، وغيرهم[٣].

وعلى ضوء ذلك أفتى العلماء بهدم ما بُني بقرافة مصر، وإلزام البنائين فيها حمل النقض، وإخراجه عنها إلى موضع غيرها[٤].

ويذكر ابن الحاج أنَّ القرافة جعلها أمير المؤمنين عمر بن خطاب -رضي الله عنه- لدفن موتى المسلمين فيها، واستقرَّ الأمر على ذلك، فيُمنع البناء فيها[٥]. ويُضيف على ذلك فيقول: قد قال لي من أثق به وأسكن إلى قوله: إن الملك الظاهر -يعني بيبرس- كان قد عزم على هدم ما في القرافة من البناء كيف كان، فوافقه الوزير

=

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٩ ص٢١٣. السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٣٢٠.

(١) هو ظهير الدين جعفر بن يحيى التزمنتي كان شيخ الشافعية في زمانه، تفقه على ابن الجميزي وأخذ عنه فقهاء زمانه كابن الرفعة فمن دونه، مات (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٤١٨.

(٢) المقصود هو الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) لأن ابن الجميزي الذي أورد هذا الخبر ونقله عن التزمنتي وابن الرفعة توفي في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)؛ أي بعد وفاة الصالح أيوب بنحو عامين.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٣٩-١٤٠.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤٠.

(٥) ابن الحاج: المدخل: مج١ ص٢٥٣.

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤١.

في ذلك وفنَّده واحتال عليه بأن قال له: إن فيها مواضع للأمراء، وأخاف أن تقع فتنة بسبب ذلك، وأشار عليه بأن يعمل فتاوى في ذلك، فيستفتي فيها الفقهاء هل يجوز هدمها أم لا؟ فإن قالوا بالجواز فعل الملك ذلك مستندًا إلى فتاويهم، فلا يقع تشويش على أحد، فاستحسن الملك ذلك وأمره أن يفعل ما أشار به[١].

وبالفعل أفتى العلماء واتفقوا على أنه يجب على ولي الأمر أن يهدم ذلك كلَّه، وأن يُكلِّف أصحابها رمي ترابها في الكيمان، ولم يختلف في ذلك أحد منهم[٢].

ويضيف السيوطي فيقول بأن آراء الفقهاء وفتواهم تمت قبل أن يكون هناك مبالغة في البناء، وتفنن فيه، ونبش القبور لذلك، وتصويب المراحيض على أموات المسلمين من الأشراف والعلماء وغيرهم، ثم يذكر أن هذا الأمر قد تضاعف في زمنه (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) جدًّا حتى كأنهم لم يجدوا من البناء فيها بُدًّا، وجاءوا في ذلك شيئًا إدًّا، وعلى ذلك يجب على ولي الأمر هدمها وتخريبها حتى يعود طولها عرضًا وسماؤها أرضًا[٣].

ويذكر السخاوي أن الشيخ علي بن عبد الله[٤] التركي نزيل القرافة بالجبل

---

(١) ابن الحاج: المدخل: مج ١ ص٢٥٣.
السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤١.

(٢) ابن الحاج: المدخل: مج١ ص٢٥٣. السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤١.
ويضيف ابن الحاج والسيوطي على ذلك فيذكرون أن الفتاوى أعطيت للوزير وأنه سكت عليها، وسافر الملك الظاهر بيبرس إلى الشام في وقته فلم يرجع، ومات بها.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص١٤١.

(٤) علي بن عبد الله التركي نزيل القرافة بالجبل المقطم، كان للناس فيه اعتقاد كبير، وتُحكى عنه الكرامات، وكانت شفاعته لا تُردُّ، مات (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، وكان أبوه من المماليك السلطانية، فنشأ هو في بيت الملك الناصر محمد، فلما كبر خرج في وجهه قوبا، فتألَّم منه =

المقطم قام بزيارة القرافة في وقت القائلة، وكان لا يمشي إلا في الشمس، ولا يستظِلُّ، وقال: إن القرافة مقبرة للمسلمين لا تُمْلك، ولا يجاز منها موضع، وإنَّ هذه الترب وضعت بغير حقٍّ، فكيف يحلُّ الاستظلال بها[1].

مما سبق يمكن القول بأن الفقهاء قد أجمعوا رأيهم واتَّفقوا على عدم إباحة البناء في الأرض الموقوفة، وبالتالي في القرافة؛ لأنها أرض موقوفة لدفن المسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولما كانت الصحراء أرضًا غير موقوفة، وبالتالي يمكن ابتياعها، وامتلاكها، والبناء فيها دون قيدٍ ولا شرطٍ مما شجَّع سلاطين وأمراء المماليك على البناء فيها منذ عصر الناصر محمد بن قلاوون الذي كان معاصرًا لجزء من الفترة التي حدثت فيها اعتراضات العلماء وفتاويهم، فابن الرفعة توفى في عام (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، وابن الحاج الذي نقل هذه الفتاوى في كتابه -بل وأفتى هو الآخر بمنع البناء فيها- فرغ من تأليف كتابه (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، وتوفي (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، -أي إنه كان معاصرًا لعصر الناصر محمد بن قلاوون المتوفى (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)-هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ هذه الصحراء تقع شمال القلعة، أي إنها تعتبر امتدادًا طبيعيًّا للقرافة الواقعة جنوب القلعة، وبمعنى آخر فهي تشتمل على كل المميزات التي سبق ذكرها عند الحديث عن أسباب اختيار سفح المقطم قرافة للمسلمين[2].

=

وعالجه فلم ينجح فيه دواء، وطلب من الشيخ عمر المغربي الدعاء، فاستدعاه ولحس القوبا بلسانه فشفاه الله سريعًا فاعتقده، ورمى الجندية، وتبع الشيخ عُمَر المغربي وسلك على يديه، وانقطع إلى الله مع كونه لم يترك زي الجندية. السخاوي: الضوء اللامع: ج٥ ص٢٥٥.

(١) السخاوي: الضوء اللامع: ج٥ ص٢٥٥.

(٢) انظر ص٣١-٤٠ من الفصل الأول.

ويمكن أن نضيف سببًا آخر كان له أثره الكبير في كثرة البناء في الصحراء، وهو ازدياد أهمية الطريق البرِّي إلى سيناء في العصر المملوكي بعد إخراج الصليبيين من بلاد الشام[١] وعودة استخدامه من جديد كطريق لقوافل الحج والتجارة[٢] ومن ثم ظهر اسم جديد له هو درب الحج، أو الدرب السلطاني[٣].

---

(١) شهد النصف الثاني من (ق ٧هـ/ ١٣م) حروب كثيرة بين المماليك والصليبيين في عهد كلٍّ من السلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وانتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيًا من بلاد الشام بعد سقوط عكَّا في يد الأشرف خليل (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م).
عن أحداث هذه الحروب وتفاصيلها انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج٢، الطبعة الأولى ١٩٦٣م، ص١١٤٠-١١٨٤. الحداد: السلطان المنصور قلاوون: القاهرة (١٩٩٣)، ص٩٢-٩٥ (وما بهما من مراجع).

(٢) كانت قوافل الحج والتجارة قبل ذلك تسلك طريق قوص عيذاب، واستمرَّ استخدام هذا الطريق زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله، وانقطاع الحج في البر، إلى أن كسا الظاهر بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحًا، ثم أخرج قافلة الحج من البرِّ في (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، فقلَّ سلوك الحاج لهذه الصحراء -أي صحراء عيذاب- المقريزي: الخطط: ج١ ص٢٠٢.
آمال العمري: المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي: رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٤٩.
سليمان عبد الغني مالكي: طريق حجاج الشام ومصر: (المجلة التاريخية المصرية، المجلدان ٣٠، ٣١، ١٩٨٣ - ١٩٨٤م، ص٥٣.

(٣) يبدأ درب الحج المصري من القاهرة في بركة الحاج، ويخترق صحراء السويس الجرداء إلى أن تقطع ترعة الإسماعيلية وتدخل برَّ سيناء شمال السويس، ومن السويس تسير في سهلٍ رملي فيَّاح مارًّا بالنواطير الثلاثة، إلى أن تدخل وادي الحاج فتصعد معه إلى مفرق وادي الحاج حيث تلتقي بدرب الحاج المصري الدروب الآتية من شطِّ السويس ببئر المرَّة أو بئر مبعوق، ومن بئر مبعوق يُعرف وادي الحاج بوادي الحيطان ويستمر السير بهذا الوادي إلى رأسه =

وبدأت أهمية هذا الطريق تظهر حين سلكته شجر الدر في طريقها للحجِّ (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) فأمرت بإصلاح الطريق، وحفر الآبار، وبناء البرك على طول طريق الحجِّ المصري، وبذلك أحيت شجر الدر هذا الطريق، بعد أن فسد مدة من الزمن[١] وفي عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) قام السلطان الظاهر بيبرس بكسوة الكعبة، وعمل لها مفتاحًا، ثم سيَّر قافة الحاج في هذا الطريق[٢]، ومنذ هذا التاريخ استقام أمر الناس في السفر من طريق مصر إلى مكة بغير جباية، وبطل ما كان يأخذه

=

المعروف بشرفة الحاج ثم يهبط الوادي إلى سهل التيه العظيم، ثم يسير الطريق إلى الشمال الشرقي مارًّا بالعديد من الأودية حتى يصل إلى نخل، ويستمرُّ المسير بعد ذلك نحو الشرق فيقطع وادي العريش ودبة البغلة، ثم فروع وادي الحراقي إلى نقب العقبة، ثم العقبة ومنها إلى مكة.

أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء، القاهرة ١٩٧٧م، ص٢٠٨، ولمزيد من التفاصيل انظر عبد العال الشامي، الطرق والمسالك الشرقية لمصر في العصر الوسيط، الكويت ١٩٩٩/ (الفصل الرابع)

(١) أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء: ص٢٠٦.

سليمان عبد الغني: طريق حجاج ص٥٠-٥١. علي حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك: القاهرة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ص٦٣.

Devonshire (R.R.): Moslem Builders of Cairc (Cairo 1943) p.67

(٢) المقريزي: الخطط: ج١ ص٢٠٢، علي حسين السليمان: العلاقات ص٦٤-٦٥. ابن عبد القادر الجزيري، الشيخ عبد القادر بن محمد، (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٦٦٥.

يوسف أحمد: المحمل والحج: ج١، القاهرة ١٩٣٧م، ص٢٤٣.

أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء ص٢٠٧.

صاحب مكة من حج مصر والشام، وجميع الركوب التي تصل إلى مكة المشرَّفة[١].

ومما ساعد أيضًا على انتعاش الطريق البري تحول طرق التجارة إلى طريق البحر الأحمر الذي أصبح من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب، ومن ثَمَّ ازدهرت موانيه المختلفة وبخاصَّةٍ الطور[٢] والسويس[٣]، وبطبيعة الحال شاع استعمال الطريق البري الذي يربط بين هذين الميناءين وبين القاهرة[٤].

ومما لا شَكَّ فيه أن ازدهار شأن الطريق البري كان له أثره الكبير في زيادة أهمية طريق الصحراء الواقعة خارج باب النصر؛ لأنه يسلك إلى بركة الحاج[٥] أول محطة على طريق القوافل -ومن

---

(١) ابن عبد القادر: درر ص٦٧٢.

(٢) عن أهمية ميناء الطور في العصر المملوكي انظر: أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء ص١٨٢-١٨٣.

(٣) عن السويس انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: ق٢ ج١، البلاد الحالية، القاهرة ١٩٥٤-١٩٥٥م، ص٧.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام: القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٠.
نعيم زكي عطية: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب: القاهرة ١٩٧٣م، ص١٢٥، ١٣٣.
آمال العمري: المنشآت التجارية ص٢٥٠.
أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء ص٢٠٦.

(٥) يذكر المقريزي أن هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها، عُرفت أولًا بجب عميرة، ثم قيل لها أرض الجب، وعُرفت إلى اليوم ببركة الحجاج؛ من أجل نزول حجاج البرِّ بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم.
المقريزي: الخطط: ج١ ص٤٨٩، ج٢ ص١٦٣، مج ٢، ص ٥٨٨.
ونضيف فنقول: إن هذه البركة كانت من المتنزهات التي يخرج إليها الخلفاء والسلاطين =

ثَـمَّ حـرص سـلاطين وأمـراء المماليـك عـلى بنـاء المنـشآت المتنوعـة سـواء

=

والأمراء من أجل الصيد ولعب الكرة وسباق الخيل، كما كانت هي المكان الذي ينزل به السلاطين والأمراء عند خروجهم من القاهرة وعند عودتهم إليها سواءً في الأسفار أو التجاريد العسكرية، أو الذهاب لتأدية فريضة الحج.

ابن ميسر: أخبار مصر: ج٢، تحقيق هنري ماسيه، القاهرة ١٩١٩م، ص١٣.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠، ص٢٦، ٥٧، ٦١، ٩٤، ١٠٩.

المقريزي: الخطط: ج١ ص٤٨٩، ج٢ ص١٦٣-١٦٤، مج ٢، ص ٥٨٨-٥٩٠؛ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك: تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م، ص٩٧، ١٠٦، ١٠٩. السلوك: ج١ ق١ ص٨٧، ج١ ق٢ ص٤٥٩- ٤٦٠، ٥٥٥، ج١ ق٣ ص٨٦٧، ج٢ ق١ ص٤٣، ٤٤، ج٢ ق٣ ص٨٢٢، ٩٠٩.

الصيرفي، علي بن داود الجوهري: نزهة النفوس: ج١ ص ٨١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤١٩، ٤٤٨، ج٢ ص٢٠٣، ج٣ ص١٦١، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٧٣، ٢٨٨، ٣١٨، ٣٨٤، ٣٩٦، ٣٩٩، ٤١١، ٤١٢.

ابن عبد القادر الجزيري: درر ص٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٦، ٦٩٢، ٦٩٣، ٧٠٤.

أما عن موضع هذه البركة اليوم فهي القرية التي تعرف باسم البركة، وكانت من قرى مركز شبين القناطر بالقليوبية، وتقع هذه القرية في الشمال الشرقي من القاهرة شرقي محطة المرج، وبالقرب منها.

تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة: ج٥ ص١٨، حاشية ١.

وانظر أيضًا: القاموس الجغرافي: ق٢ ج١ ص٣١. أما حاليًا فالبركة تتبع قسم المطرية شمال القاهرة، ولمزيد من التفاصيل عن هذه البركة انظر: محمد الششتاوي: متنزهات القاهرة ص١٨٣-١٨٦. آمال العمري: بركة الحاج في العصرين المملوكي والعثماني: القاهرة (١٩٨٧م)، ص ٧-٥٩؛ عبدالعال الشامي، السرحات السلطانية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، الكويت ١٩٩٤م، ص ٣٧-٤٠..

بالبركة[١] أو على جانبي الطريق المؤدي[٢] إليها (خريطة رقم ٤).

---

(١) حرص سلاطين وأمراء المماليك على بناء المنشآت المتنوعة ببركة الحاج، ومن بينها أحواش للخيل والجمال وميدان لنتاج الخيل في عهد الناصر محمد بن قلاوون.
المقريزي: الخطط: ج٢ ص١٦٤. السلوك: ج٢ ق١ ص٢٣٠-٢٣١.
وقام القاضي عبد الباسط في سنة (٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م) ببناء بستان وساقية وفسقية ماء قد عمَّ بها النفع هنالك.
ابن إياس: بدائع الزهور: ج٢ ص١٠١.
ابن عبد القادر الجزيري: درر ص٤٧٩.
وقام الأمير علان من ططخ الأشرفي (ت٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) بإنشاء سبيلٍ وحوضٍ في أثناء طريق بركة الحاج.
السخاوي: الضوء اللامع: ج٥ ص١٥٠.
ابن إياس: بدائع: ج٣ ص١٨٢.
وقام السلطان قايتباي بإنشاء حوض على الدرب السلطاني، وكان الشاد على العمارة الأمير يشبك الجمالي. ابن إياس: بدائع: ج٣ ص١٤٩.
وإلى جانب ذلك أقيمت الخانات، أو فنادق مبيت القوافل حيث يستريح التجار ودوابهم، وكان يوجد منها خان ببركة الحاج.
نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ص٢٩٤.

(٢) حرصت معظم الوثائق على تحديد موقع منشآت الصحراء بالنسبة للطريق المسلوك من القلعة إلى قبة النصر، أو الطريق السلطاني، فتذكر وثيقة السلطان برسباي أن مدرسته وتربته بالصحراء تقع بالطريق المسلوك على يمنة السالك من قلعة الجبل إلى قُبَّة النصر، أما الزاوية والقبة المواجهة للمدرسة فتقع على يمنة السالك من قُبَّة النصر طالبًا قلعة الجبل المحروسة.
انظر: نص الوثيقة في محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباي بمدينة القاهرة: ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٩٧٧م) ص٦٨، ٧٣.
وكانت تربة المؤرخ ابن تغري بردي تقع على يمين السالك بالدرب السلطاني طالبًا تُربة السلطان جقمق والشيخ كهنفوش، انظر: عبد اللطيف إبراهيم: وقفية ابن تغري بردي (ندوة المؤرِّخ ابن تغري بردي: القاهرة ١٩٧٤م) ص١٩٢.

ومما يُؤكِّد أهمية هذا الطريق ما ذكره المقريزي من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قام بنقل سوق الجمال والحمير من تحت القلعة إلى تجاه التربة التي عمَّرها على قبر أبيه، فاستمرَّ ذلك أيامًا في عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، ثم أُعيدت الأسواق إلى مكانها، وكان قصده أن يبني هناك خانًا[١] كبيرًا ينزل فيه المسافرون، ويجعل بجانبه سوقًا، وبنى طاحونًا وحمَّامًا وفرنًا لتعمر تلك الجهة بالناس، فمات قبل بناء الخان وخلت الحمَّام والطاحون والفرن بعد قتله[٢].

ويذكر ليون الأفريقي الذي زار مصر في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني أن أحد سلاطين المماليك المتأخرين -ربما كان السلطان الغوري- قد قام

---

(١) الخان: كلمة فارسية معناها: منزل، أو سوق، وقد استخدمت منذ أقدم العصور لإيواء المسافرين ودوابهم وبضائعهم، ولعلَّ السبب في إطلاق هذا الاسم هو أن سلاجقة الروم كانوا هم أوَّل من طوَّر تخطيط عمارة جميلة لهذا الغرض خاصَّةً.

آمال العمري: المنشآت التجارية ص١٤٦.

وكانت الخانات تبنى داخل المدن وخارجها، بل نجد أن أغلب الخانات كانت تبنى خارج المدن على الطرق التجارية؛ ولذلك فقد اقتضى الأمر أن تدعم تلك الخانات بأبراج للمراقبة منعًا من الاعتداء عليها.

آمال العمري: أضواء على المنشآت التجارية في مصر المملوكية (الكتاب الذهبي: الجزء الثاني، عدد خاص من مجلة كلية الآثار، القاهرة ١٩٧٨م) ص٦٨.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

ويذكر فرناند أن هذا المشروع كان محاولة مدروسة لتمدين الصحراء، واعتبره أيضًا مجهودًا متعمَّدًا لخلق أحياء سكنية جديدة بعيدة عن مركز المدينة المزدحم، إلا أن وفاة الناصر فرج (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) حالت دون تنفيذ هذا المشروع.

Fernands: op. Cit. pp. 144-145.

والواقع أن ما قام به الناصر فرج وأراد تنفيذه يتناسب تمامًا مع ازدياد أهمية طريق الصحراء في العصر المملوكي، وما ترتب على ذلك من إنشاء وتعمير.

بفتح محجة بين جدارين عاليين تبتدئ عند أحد أبواب المدينة[١] وتسير حتى مكان الأضرحة -أي مقابر السلاطين بقرافة صحراء المماليك- وفي طرف هذين الجدارين برجان عاليان يقيم فيهما الحرس الذي يرقب ورود السلع الآتية من جبل سيناء[٢].

وفي ضوء ما سبق يمكن القول بأن الأهمية الاستراتيجية والتجارية لطريق الصحراء، كانت سببًا من أسباب كثرة البناء على جانبي هذا الطريق في العصر المملوكي، وهذا يذكرنا بكثرة المنشآت على جانبي الشارع الأعظم داخل أسوار القاهرة أو امتداده خارج باب زويلة أو الطريق المؤدي إلى القلعة، مقرّ الحكم وكرسي السلطنة، خارج باب زويلة أيضًا، وغيرهما من الشوارع ذات الأهمية الاستراتيجية أو التجارية.

مما سبق نرى أنه قد اجتمعت عدَّة عوامل جعلت من الصحراء الواقعة شمال القلعة مكانًا مناسبًا وملائمًا للبناء والدفن بحيث أصبحت تُشكِّل الامتداد الطبيعي للقرافة جنوب القلعة.

أ-عمران الصحراء في عهد الظاهر برقوق والناصر فرج:

إزداد عمران الصحراء في العصر الجركسي فيذكر المقريزي أنه لما مات الملك الناصر بطل من الميدان السباق بالخيل، ورمي القبق فيه، ومنعت طريقه من كثرة العمائر، وأنه كانت توجد عدة عواميد من رخام -يقال لها: عواميد السباق- فيما بين

---

(١) ربما كان المقصود بهذا الباب باب النصر الذي ذكر ليون الأفريقي أنه يقع في الجهة الشرقية باتِّجاه الصحراء التي يقطعها الذاهب إلى البحر الأحمر.

ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان): وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة ومراجعة علي عبد الواحد، الرياض (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م)، ص٥٧٩، طبعة الرباط ص٢٠٤.

(٢) ليون الإفريقي: وصف إفريقيا ص٥٨٧-٥٨٨، طبعة الرباط ص٢١٢.

قُبَّة النصر وقريب من القلعة، وكان يوجد بين كل عمودين مسافة بعيدة ظلَّت قائمةً هناك إلى أن هُدمت بعد عام (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) عندما عمَّر الأمير يونس الدوادار[١] تُربته تجاه قُبَّة النصر[٢]. (شكل ١٩)، (لوحة ٥٨).

ويذكر بعض العلماء أن تربة يونس الدوادار هي أوَّل منشأة دينية مملوكية تنشأ في تلك البقعة أي على جزء من ميدان القبق[٣].

والواقع أن هذا القول لا يمثِّل الحقيقة كلها؛ فالأمير شمس الدين قراسنقر كان أول من ابتدأ بالعمارة على أرض ميدان القبق منذ عهد الناصر محمد كما سبق القول أمَّا الأمير يونس الدوادار فهو أوَّل من عمَّر في البراح الذي كان فيه عواميد السباق[٤].

---

(١) الأمير يونس شرف الدين النوروزي الظاهري الدوادار، جعله الظاهر برقوق أمير مائة مقدم ألف، وجعله دواداره، أنشأ تربة خارج باب الوزير مقابل صهريج منجك، وأخرى بدمشق وخانقاة، ولم يُقدَّر دفنه بواحدة منهما عندما قتل في (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، ولم يعرف له قبر بعدما أعدَّ لنفسه عدة مدافن في غير ما مدينة في مصر والشام. المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٢٦، مج ٤، ص ٧٨٨-٧٩١.

ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ص٣١٦، ولم يتبقَّ من هذه التربة سوى القُبَّة التي لا تزال موجودة في الجزء الشمالي الشرقي من خانقاة الناصر فرج بن برقوق.

عاصم محمد رزق: خانقاوات: ج١ ص٣٠٧-٣١٤.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص١١٣، ٤٦٤.

على مبارك: الخطط التوفيقية: ج١ ص٨٣.

(٣) حسن عبد الوهاب: خانقاة الناصر فرج بن برقوق وما حولها (مستخرج من كتاب المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية: فاس ١٩٥٩م) القاهرة ١٩٦١م، ص٢٦٨.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير قرقماس، الملحق الوثائقي ص٦٩.

Fernands: op. cit. p. 144

(٤) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

وعمَّر الأمير قجماس[١] ابن عمِّ الظاهر برقوق تُربة[٢] بجانب تربة يونس، وتتابع الناس في البنيان إلى أن صار كما هو الآن -أي زمن المقريزي- ويقصد كثرة العمائر بالميدان[٣]. أما السلطان الظاهر برقوق فقد أوصى بأن يعمر له تُربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدوادار بثمانين ألف دينار، ويشترى بها فضل من عمارة التربة المذكورة عقارًا ليوقف عليها، وأن يُدفن في لحدٍ

---

(١) قجماس ابن عم الظاهر برقوق قدم من بلاد الجركس، وترقى في الدولة الظاهرية إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف. ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص١١٧، ٢٢١.

(٢) كانت هذه التربة شرقي تربة الظاهر برقوق، وقد عرفت باسم التربة القجماسية، ودفن فيها كلٌّ من: ولده إينال باي في (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، وحفيده يوسف بن إينال باي في (٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م). ابن تغري بردي: المنهل: ج٣ ص١١٧، ٢٢١.

السخاوي: الضوء اللامع: ج١٠ ص٣٠٢-٣٠٣.

هذا وقد نسبت سوسن سليمان هذه التربة إلى الأمير قجماس الإسحاقي (ت٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م)، ومن المعروف أن هذا الأمير بنى تربة بالصحراء بجوار تُربة الأمير قانم التاجر التي كانت تقع إلى الجنوب من تربة أبي زكريا يحيى تجاه تربة السلطان إينال التي لا تزال باقية لليوم، أما هذه التربة فكانت تقع بجوار تربة يونس الدوادار إلى الشرقي من تربة الظاهر برقوق، كما أنه دأب نفر من العلماء على الإقامة بها، وإلقاء الدروس على المتردِّدين عليها، ومنهم الشيخ رضوان بن محمد بن يوسف الذي أقام بها ودفن بها بعد وفاته (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، ومن المعروف أنه حتى هذه السنة الأخيرة لم يكن الأمير قجماس الإسحاقي قد بلغ شأوًا بعيدًا.

السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي) (ت٩٠٣هـ/ التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، د ت، ص٢٣٨، ٢٤٠-٢٤١.

عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٤٩.

سوسن سليمان: منشأة الأمير قجماس الإسحاقي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٤م، ص٦٧.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص١١٣، ٤٦٣.

تحت أرجل الفقراء المدفونين هناك[١] ويبرز هنا تساؤل وهو: لماذا اختار الظاهر هذا المكان وفضَّله على تربته[٢] التي عمَّرها بمدرسته ببين القصرين، ثم لماذا أمر بتعمير تربته بجوار يونس الدوادار؟

ويجيب الصيرفي على الشِّقِّ الأوَّل من هذا السؤال، فيذكر أن السلطان اختار هذا المكان على تربته التي عمَّرها بمدرسته لأنه استطاب هذه البقعة على بقعة المدرسة، وأنه اختار مجاورة أموات المسلمين، ولا سيَّما منهم مشايخ وعلماء وصالحين، وأنه اختار دفن السُّنَّة بخلاف من يدفن في فساقي[٣].

أمَّا عن علاقة الظاهر برقوق بتربة الأمير يونس الدوادار، فيذكر المؤرِّخون أنه دفن فيها والده وأولاده قبل أن ينقلهم إلى القُبَّة الملحقة بمدرسته بين القصرين[٤].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٢ ص١٠٣-١٠٤.
الصيرفي (علي بن داود الجوهري): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان: تحقيق حسن حبشي: ج١ (دار الكتب ١٩٧٠) ص٤٩٥.
حسن عبد الوهاب: خانقاة الناصر فرج ص٢٨٨.

(٢) ويقصد بها القبة المدفن الملحقة بمدرسة وخانقاة الظاهر برقوق بشارع بين القصرين، والتي فرغ من بنائها (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م).

(٣)الصيرفي: نزهة: ج١ ص٤٩٦.
وعن الفساقي انظر: الحداد: القباب في العمارة المصرية الإسلامية: ج١ ص٥٦-٦١.

(٤) عندما توفي الأمير أنص (أنس) بن عبد الله الجركسي والد الظاهر برقوق في (٧٨٣هـ/ ١٣٨١م) دفن بتربة يونس الدوادار، وكذلك عندما مات للسلطان ولد في (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) دفن بها أيضًا، وعندما تكاملت مدرسة الظاهر برقوق ببين القصرين (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، رسم بأن تنقل رمم أولاده ووالده من موضع دفنهم إلى الفسقية التي بالقبة الملحقة بالمدرسة.
ابن قاضي شهبة: تاريخ ص٧٠-٧١، ١٨٣.

=

ويبدو أن تلك الحادثة كانت هي السبب الذي جعل السلطان برقوق يُفكِّر في إنشاء حوش يدفن فيه مماليكه وأقاربه والشيوخ والصالحين، فأحاط قطعة كبيرة بجوار تربة يونس بحائط ودفن فيها بعض الشيوخ والمماليك، فلما مرض أوصى أن يُدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء[1].

وعندما تُوفي السلطان برقوق في منتصف شوال (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، دفن في الحوش بجوار هؤلاء الفقراء، وأقيم على قبره خيمة، وشرع ابنه الناصر فرج في

=

ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص١٠٥- ١٠٦، ٢٨٨.

الصيرفي: نزهة: ج١ ص٩٥، ١٣٣.

وتذكر (ديفونشير) أن قبة يونس الدوادار بُنيت لوالد السلطان برقوق الأمير أنس الذي جاء إلى القاهرة، بعد أن بلغ ابنه برقوق شأوًا بعيدًا، وبسبب ذلك عرفت هذه القبة بقبة أنس، وهذا القول يخالف الحقيقة التي ذكرها المؤرِّخون من أنه دفن بها ولم تبن له.

Devonshire (R.L.): Ramples in Cairo, (1931) pp. 55-56.

(١) دفن بهذا الحوش عدد كبير من الشيوخ والمماليك من بينهم الشيخ أمين الدين الخلوتي (ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)، والشيخ علاء الدين السيرامي الحنفي (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

والشريف برهان الدين الأخلاطي المعروف باللازوردي؛ لأنه كان يصنع اللازورد (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، والشيخ علي بن أحمد، والشيخ طلحه المغربي، والشيخ أبي بكر البجائي، ودفن فيه بعد ذلك الأمير طاز الخازندار (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م).

ابن قاضي شهبة: تاريخ ص٢٣٥، ٢٥٥-٢٥٦، ٦٢٥.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٢ ص١٠٣-١٠٤، المنهل الصافي: ج٢ ص١٧٢، ١٧٤، ٤٦٧-٤٦٨.

الصيرفي: نزهة: ج٢ (دار الكتب ١٩٧١م) ص٢٨.

عبد الرازق الطنطاوي: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني، (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٣.

تنفيذ وصيته فأقام قُبَّة على قبر السلطان وقبور الفقراء[١]، وبنى خانقاة كبيرة على مساحة قدرها عشرة آلاف ذراع[٢]. (شكلا ٢٨-٢٩)، (لوحات ٧-٩، ٦٢-٦٣).

ويذكر المقريزي أن هذا العمل كان له أثره على عمران المنطقة حيث تجدَّدت هناك من حينئذٍ عدَّة ترب جليلة حتى صار الميدان شوارع وأزِقَّة[٣].

وقد سار أمراء الظاهر برقوق على منوال أمراء الناصر محمد

---

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

هذا ولا تزال هذه القبة قائمة في الركن الشرقي من إيوان القبلة، وتوجد قبة أخرى تماثلها بالركن الجنوبي من نفس الإيوان، وقد خصصت لدفن النساء.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

لا تزال هذه الخانقاة باقية حتى اليوم، وتعتبر من أجمل الآثار المملوكية الجركسية، وهي تتكون من صحن أوسط مكشوف، تحيط به أربع إيوانات: أكبرها ايوان القبلة، وعلى جانبية توجد القبتين اللتين سبق ذكرهما، أما الإيوان الشمالي الغربي فيحتوي على بابين للدخول، وسبيلين فوقهما مكتبين للسبيل، وبواجهة هذا الإيوان مئذنتان، أما الإيوانان الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي فيوجد خلفهما خلاوي الصوفية، هذا عدَا كثير من الملحقات والمنافع والمرافق الأخرى، ومن مميزات هذه الخانقاة التماثل والتوازن في كثير من أجزائها.

وممن تناول هذه الخانقاة بالبحث والدراسة.

حسن عبد الوهاب: خانقاة ص٢٨٣، ٢٨٨.

سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون: ج٤: ١٩٨٠م، ص٦٢، ٦٨.

دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس ص٥؛ نويصر: العمارة الإسلامية في مصر، عصرى الأيوبيين والمماليك ص ٣١٤-٣٢٥. عاصم محمد رزق: خانقاوات: ج٢ ص

Creswell; Abrief Chronology, pp: 119-120

Devonshire: Eighty Mosques and other Islamic Monuments In Cairo (Paris, 1930) p. 42.

Mostafa (S.L.) Kloster und Mousoleium Des Farag Ibn Barquq in kairo. (1968) pp.

(٣) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٤٦٤.

بن قلاوون فعمَّر كلُّ واحد منهم تربة له بالصحراء، ومن هؤلاء حسام الدين حسن الكجكني[١] وسيف الدين[٢] بُجاس، وكزل[٣] (لوحة ٦٠)، وسعد الدين بن غراب[٤] (لوحة ٦١)

---

(١) كان هذا الأمير أحد أمراء الخمسينات، توفي في رجب (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، ودفن في تربته قُبالة حوش السلطان برقوق. الصيرفي. نزهة: ج٢ ص٢٥-٢٦.

(٢) بُجاس: بضم أوله وتخفيف الجيم وآخره مهملة، هو الأمير سيف الدين العثماني النوروزي من كبار الجراكسة في بلاده، صار أحد المقدمين في عصر برقوق، توفي في رجب (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م).

ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٢ ص٢٤١.

السخاوي: الضوء اللامع: ج٣ ص٢.

ويستدل من وثيقة القاضي عبد الباسط أن تربته كانت تقع بالقرب من تربة المرحوم السيفي بُجاس، يفصل بينهما طريق، وبما أن تربة القاضي عبد الباسط تقع في الجهة الشمالية الغربية من منشأة إينال وقرقماس، فهذا يعني أن تربة بُجاس كانت تقع بالقرب من هاتين المنشأتين الباقيتين للآن، وهما إينال وقرقماس. عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٥٠.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير، الملحق الوثائقي: ص١٤٩.

سامي نوار: الأعمال المعمارية للقاضي زين الدين عبد الباسط، ماجستير، غير منشوره، جامعة أسيوط ١٩٨٠م، ص٦٥، ٢٦٢، ٢٦٨.

(٣) هو الأمير كزل الناصري، نسبة لتاجره الخواجا ناصر الدين الظاهري برقوق، مات في سنة نيف وعشرين وثمانمائة، وفرغ من بناء تربته عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، ولم يتبقَّ منها سوى القبة الكائنة بقرافة المجاورين.

السخاوي: الضوء اللامع: ج٦ ص٢٢٨.

حسن عبد الوهاب: العمارة الإسلامية (عصر المماليك الجراكسة)، (مجلة العمارة، المجلد الخامس ١٩٤٥م) العدد الأوَّل ص٣٧.

عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة ص٤٨.

(٤) هو الأمير سعد الدين بن غراب ناظر الجيوش وأستادار السلطان وكاتب السرِّ، وأحد أمراء =

وألتش[١] الشعباني، ويشبك الشعباني[٢]، وكلٌّ من قجاجق الظاهري[٣]، وأقباي الظاهري[٤]، وجمال الدين يوسف

=

الألوف الأكابر، توفي في رمضان (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، ودفن بتربته خارج باب المحروق. هذا ولا تزال القُبَّة الخاصَّة بهذا الأمير باقية في الجهة الجنوبية الغربية من منشأة السلطان قايتباي بجوار تربة الأمير منكلي بغا التي سَبَق ذكرها.

المقريزي، الخطط: ج٢ ص٤١٩-٤٢٠.

(١) كان هذا الأمير نائب قلعة الجبل، وعندما توفي في جمادى الآخرة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، دفن بتربته بالصحراء بجوار تربة الملك الظاهر برقوق عند قبة النصر، إلا أنها مندثرة. الصيرفي: نزهة: ج٢ ص٢٣٣.

(٢) هو الأمير يشبك الشعباني الأتابكي الظاهري برقوق، رقي إلى التقدمة والخازندارية، ثم صار لالا الناصر فرج، ثم دويدار، ثم مدبر المملكة، وقتل في ربيع الآخر (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، ودفن بتربته بالصحراء، وكان بالقرب منها تربة خشقدم الرومي، ولم يعدْ يبقَ لهذه أو تلك أثر. السخاوي: الضوء اللامع: ج٣ ص١٧٤، ج١٠ ص٢٧٨.

(٣) كان من خاصكية الظاهر برقوق، ثم رقَّاه الناصر فرج إلى التقدمة، ثم إلى الدويدارية الكبرى توفي في أواخر (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، ودفن بتربته بالصحراء.

السخاوي: الضوء: ج٦ ص٢١١.

ويستفاد من وثيقة أمير كبير قرقماس أن هذه التربة كانت تقع بجوار طباق وربع قرقماس المندثرين، وكان يفصل بينهما زقاق.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة أمير كبير (الملحق الوثائقي) ص٣١-٣٣.

(٤) هو أقباي بن عبد الله الطرنطاي الظاهري برقوق، ترقى في أيام الناصر فرج للتقدمة، ثم للحجوبية الكبرى، ثم لإمرة سلاح، ثم لرأس نوبة الأمراء، ومات عليها في جمادى الآخرة (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، ودفن بتربته التي كانت خارج باب البرقية بالروضة. الصيرفي: نزهة: ج٢ ص٢٦٠.

السخاوي: الضوء: ج٢ ص٣١٣.

الإستادار[١]، والأمير أقبغا[٢] القديدي، كما بُنيت زاوية للشيخ على كهنفوش[٣]، ودفن بها بعد وفاته (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م).

---

(١) هو الأمير جمال الدين يوسف الأستادار توفي في جمادى الآخر (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، ودفن بتربته بالصحراء خارج باب النصر، وأخرج الناصر فرج غالب أوقافه حتى مدرسته التي أنشأها بخط باب العيد وسُميت الناصرية، بينما يذكر الصيرفي أنه دفن في تربة الأمير بُجاس بالصحراء، وهذا ليس بصحيح؛ لأن وثيقة هذا الأمير تثبت أنه بنى لنفسه تربة بالصحراء.
الصيرفي: نزهة: ج٢ ص٢٦٠.
السخاوي: الضوء: ج١٠ ص٢٩٧.
هذا ولم تحدد وثيقة وقف هذا الأمير موضع هذه التربة، وإنما ذكرت فقط أنه أنشأها خارج باب النصر، ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه التربة تحتوي على مسجد عبارة عن رواق تقام فيه الصلوات، إلى جانب ميضأة وفسقية وساقية وسبيل وصهريجين، وعدد من الحواصل والطباق المخصص للسكنى. محمد عبد الستار عثمان: وثيقة وقف جمال الدين يوسف الأستادار: الإسكندرية ١٩٨٣م، ص٤٧، ٤٨، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ٣١٣.
وتدلُّنا هذه الوثيقة على أن التربة ليست المقبرة، وإنما مبنًى يحتوي على أكثر من وحدة معمارية كما سبق القول.

(٢) هو الأمير أقبغا القديدي دوادار يشبك الشعباني، وكان حريصًا على جمع الأموال، وأعطي إمرة عشرة، وتولى الدوادارية الصغرى عند الملك الناصر، مات في شوال (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، ودفن بتربته بالصحراء التي كانت بالقرب من تربة الملك الظاهر برقوق.
الصيرفي: نزهة: ج٢ ص٢٩٨.

(٣) هو الشيخ علي كهنفوش، وهو شيخ أعجمي معتقد، يقال: إنه جركسي الجنس سكن العجم، وكان مشكور السيرة محمود الطريقة، ذا حظٍّ عند الأتراك، بل ومن السلطان المؤيد، وبنى له هذه الزاوية المعروفة بزاوية كهنفوش الأمير سودون الشيرخوني النائب، وأسكنه فيها حتى مات ودفن بها.
السخاوي: الضوء: ج٦ ص٦٢.
هذا وقد أمر السلطان إينال بأن يصرف من ريع وقفه لهذه الزاوية في كلِّ سَنة من السنين من =

ب-عمران الصحراء في عهد الأشرف برسباي:

ويبدو أنه لم تُبن أي تُرَب أو منشآت في الجهة الجنوبية الغربية من تربة الظاهر برقوق، فيذكر ابن تغري بردي أن الساحة التي كانت تجاه تربة الملك الظاهر برقوق كان يلعب فيها المماليك السلطانية بالرمح في أوائل عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م)، ثم امتلأت بالكثير من العمائر[١] وقام السلطان الأشرف برسباي ببناء مجموعة معمارية ضخمة بالصحراء بالطريق المسلوك على يَمْنَة السالك من قلعة الجبل إلى قُبَّة النصر[٢]. (شكل ٣١) (لوحات ١٠-١٤، ٦٤).

هذا وتشير المصادر التاريخية إلى هذا العمارة، فتذكر أن برسباي عمَّر مدرسة وتُربة بالصحراء بالقرب من تربة الظاهر برقوق، وأنه عندما مات

=

الماء العذب المحمول من ماء النيل المبارك ألف راوية وخمسمائة راوية إلى جانب نصف رطل زيت طيب برسم الوقود، وشعير عليقة واحدة في كل يوم برسم بهيمة الشيخ...) سامي أحمد حسن: السلطان إينال وآثاره المعمارية في القاهرة: دكتوراة، غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٧٦م، الملحق ص٦.

وبناء على هذه الوقفية ظنَّ سامي حسن أن زاوية كهنفوش من بين عمائر السلطان إينال بالصحراء، وقد تبين أن هذا غير صحيح.

سامي أحمد حسن: السلطان إينال ص١٩٤.

وعلى الرغم من أن الوثيقة لم تحدد موضع هذه الزاوية، إلا أنه يمكن القول بأنها كانت تقع بالقرب من تربة الأمير يشبك من مهدي، التي تقع قبلي قبته المعروفة (بالفداوية)، فيذكر ابن إياس أنه عندما وصلت رأس الأمير يشبك وتحققوا منها (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، دفنوها في تربته التي عند زاوية كهنفوش. ابن إياس: بدائع: ج٣ ص١٧٧.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٩ ص١٨٥-١٨٦.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباي ص٦٨.

٨٤١هـ/ ١٤٣٨م، دُفن بتربته[١] هذه، وعلى الرغم من إشارة هذه المصادر إلى تلك العمارة إلا أنها لم تذكر صراحةً تاريخ ابتداء العمل في بنائها، كما أن النقوش الإنشائية عليها أشارت فقط إلى تاريخ الانتهاء، وهو شهر ذي الحجة ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م، ولكن بمراجعة ما ذكرته هذه المصادر من أحداث يمكن أن نُحدِّد هذا التاريخ بصورة تقريبية، كما أنه يمكن تَتَبُّع مراحل إنشاء الوحدات المعمارية التي عمَّرها برسباي بالصحراء.

والواقع أن نواة هذه المجموعة كان حوشًا بناه السلطان ليدفن فيه أقاربه ومماليكه والشيوخ والعلماء، وقد دُفن فيه في عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، كلٌّ من الشيخ سراج الدين عمر بن علي الشهير بقارئ الهداية[٢]، والشريف بدر الدين حسن بن عجلان صاحب[٣] مكة، والأمير قُجُق العيساوي أتابك

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص٢٧٤، ٢٧٦.
السخاوي: الضوء اللامع: ج٣ ص٩.
ابن إياس: بدائع الزهور: ج٢ ص١١٨، ١٨٨-١٨٩، ١٩١-١٩٢.

(٢) هو الشيخ سراج الدين عمر بن علي بن فارس الحنفي الشهير في الديار المصرية بقارئ الهداية توفي (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م)، ودفن في الحوش الذي بناه الأشرف برسباي المجاور لتربة الملك الظاهر وابنه الملك الناصر فرج بالصحراء.
الصيرفي: نزهة النفوس: ج٣ (دار الكتب ١٩٧٣م) ص ١٠٧-١٠٨.
السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٤٧٣.

(٣) الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة، كان قد تجهز ليستقرَّ على إمرته، فوافاه الأَجَل المحتوم ومات في القاهرة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م)، ودفن في الحوش الذي بناه برسباي بالصحراء، كذلك دُفن معه بعد ذلك ولده الأمير أبو القاسم بن حسن بن عجلان عندما قدم إلى القاهرة ووافته منيته في ٢٠ صفر (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، فدُفن على والده بحوش الأشرف برسباي بعد أن صلى عليه السلطان بمصلى المؤمني بالرميلة (ميدان صلاح الدين أسفل القلعة الآن).

=

العساكر[١] وهذا يعني أن برسباي بنى هذا الحوش قبل وفاة هؤلاء -أي في بداية ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م- بل وربما قبل ذلك، ومن ثَمَّ كان هذا الحوش أوَّل ما أنشأ برسباي بالصحراء[٢]

وتشير المصادر التاريخية في حوادث صفر ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م إلى أن السلطان برسباي ركب من القلعة وشقَّ القاهرة، ودخل من باب زويلة وخرج من باب النصر إلى خليج الزعفران، فرأى البستان الذي أنشأه هناك، وعاد من خارج القاهرة على تربته التي عمَّرها هناك بجوار تربة الملك الظاهر برقوق بالصحراء[٣].

=

الصيرفي: نزهة: ج٣ ص١٠٩. ابن تغري بردي: النجوم: ج١٤ ص٥٤٢. الدليل الشافي: ج١ ص٢٦٤. السخاوي: التبر المسبوك ص٢٨٢. الضوء اللامع: ج٣ ص١٠٣-١٠٥، ج١١ ص١٣٤. النجم عمر بن فهد: اتحاف لورى: ج٤ ص٢٩٠. الدر الكمين: ج٢ ص١٣٣٢. العز بن عمر بن فهد: غاية المرام في سلطنة البلد الحرام: ج٢ تحقيق محمد فهيم شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٥٠١-٥٠٢.

(١)الأمير قُجُق: بضم القاف والجيم وفي آخره العيساوي أتابك العساكر بالديار المصرية، كان رجلًا متواضعًا حليمًا شجاعًا ديِّنًا يخاف على دينه، توفي (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م)، ودُفن في حوش برسباي بالقرب من تربة برقوق بالصحراء.

الصيرفي: نزهة: ج٣ ص١١١-١١٢.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية ص١٥١.

(٣)المقريزي: السلوك:.ج٤ ق٢ ص٧٦٦.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٤ ص٣١٢.

هذا ويشير محمد عبد الستار عثمان إلى أن ابن إياس قد عارض كلًا من المقريزي وأبي المحاسن حيث ذكر أن برسباي عمر تربته بالصحراء في (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)، وأنه بذلك قد أخطأ في ذكر هذا التاريخ؛ لأنه لم يكن معاصرًا لبرسباي كالمؤرِّخين السابقين.

محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص١٥١، حاشية ٣.

ولكن الواقع غير ذلك، فرواية ابن إياس صحيحة تمامًا وتتفق مع الرواية السابقة، فيذكر في

=

ويُفهم من هذه الرواية أن بناء تربة السلطان كان قبل هذا التاريخ -أي قبل عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م- وبعد ذلك استمرَّ الإنشاء، فبنى السلطان في حوشه عدَّة ترب لأقاربه[١]، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، كما تشير إليها النقوش الوقفية المسجَّلة على اللوحات الرخامية المثبتة على الواجهة الشمالية الغربية للمنشأة كلِّها[٢] (لوحة ٦٨).

وتمَّ الفراغ من بناء هذه المجموعة في ذي الحجة ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م، كما يشير إلى ذلك النقش الإنشائي المُسجَّل على عضادتي المدخل الرئيسي بالركن الغربي من المدرسة، والتي ذُكر أنه تمَّ الفراغ من بناء هذه الخانقاة في التاريخ المذكور[٣].

وإذا كانت هذه المجموعة قد ذُكِرَت في هذا النقش على أنها خانقاة، فإن الوثيقة

=

حوادث صفر (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، وفيه توجَّه السلطان إلى نحو خليج زعفران، ورجع من الصحراء، وكشف عن بناء تربته التي أنشأها بالقرب من البرقوقية، ثم عاد إلى القلعة. ابن إياس: بدائع: ج٢ ص١١٨.

(١) دفن في هذا الحوش كلٌّ من يشبك أخي برسباي، وبيبغا المظفري سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، وكلٌّ من أقطوه وتاني بك أقارب السلطان.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٥ ص١٦٥.

السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٢، ج١٠ ص٢٨٠.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص١٥٢.

حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: ج٣ ص١٢١٨.

وعن تحليل لفظ ناظر التربة الوارد في هذه الوقفية ص١١٩١-١١٩٢.

وعن نص هذه الأوقاف انظر: Berchem: op, Cit Vol 2, pp. 369-370.

(٣) عن النقش الإنشائي انظر: Berchem: op. Cit. P. 365.

لم تُشِرْ صراحة إلى هذا اللفظ -أي الخانقاة- وإنما أشارات فقط إلى كلٍّ من المدرسة[١] والتربة[٢] التي قام ببنائها برسباي على يمين السالك من القلعة إلى قُبَّة النصر.

ويُفيدنا نصُّ الوثيقة في أن المدرسة ليست هي التربة، ويُؤيِّد ذلك أن الوثيقة ذكرت مكونات كلٍّ منهما على حِدَةٍ، كما ذكرت حدود كلٍّ منهما مستقلَّة عن الآخر، والحدّ الغربي فقط يؤدي إلى المكان أو المجاز الفاصل بين المدرسة والتربة، كما يُفيدنا هذا النصُّ أيضًا في أن التربة لا تعني المدفن ذي القُبَّة، ويؤيِّد ذلك أن الوثيقة ذكرت قُبَّة مدفن[٣] السلطان ضمن مكونات المدرسة، ولم تذكرها ضمن مكونات التربة المتعددة.

---

(١) تذكر الوثيقة أن المدرسة تتكون من إيوانين (قبلي وبحري) بينهما درقاعة، يوجد بها أمام باب الدخول للمدرسة شباك نحاس يؤدي إلى قبة المدفن الملحق بالمدرسة، إلى جانب رواق وميضأة وغير ذلك، ويتم الوصول إلى هذه الوحدات من أربعة مداخل بالدهليز المتفرع من المدخل الرئيسي على الواجهة البحرية، كما ذكرت أن حدود المدرسة هي القبلي يؤدي إلى الحوش والبحري إلى الطريق، والشرقي إلى الحوش، والغربي إلى المكان الفاصل بين ذلك وبين التربة.

انظر نص الوثيقة في محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص٦٨-٦٩.

(٢) تذكر الوثيقة أن التربة تتكون من مدخلين منفصلين يؤديان إلى وحداتها المتعددة، ومنها سبيلان ورواقان، وعشرة طباقات، وسبعة خلاوي، وصهريجان وحوشان جنائزيان، وإصطبل، ومطبخ ومراحيض ومكان بمحراب، وتذكر حدودها الأربعة: القبلي يؤدي إلى الطريق، وكذلك البحري وفيه الواجهة والشبابيك والبابين، والشرقي إلى الطريق الفاصل بين ذلك وبين تربة الظاهر برقوق، والغربي إلى المجاز الفاصل بين ذلك وبين المدرسة، انظر نصَّ الوثيقة في محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص٧٠-٧١.

Fernands: op. Cit. pp. 145-146.

(٣)يذكر محمد عبد الستار عثمان أن ضريح برسباي يُعد من ضمن ملحقات الخانقاة، بينما نص الوثيقة السابق يشير إلى أنه من ضمن ملحقات المدرسة.

محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص١٥٢.

وعلى ضوء ذلك يمكن القول بأن لفظ التربة الذي ورد ذكره في نصّ الوثيقة وما اشتملت عليه من مكونات متعدِّدة، هي في حدِّ ذاتها من المكونات التي تُوجد عادةً كلُّها أو بعضها في الخانقاوات، إنما أُريد به الخانقاة، ويؤيِّد ذلك ورود لفظ الخانقاة على المدخل الرئيسي للمنشأة كصفة جامعة مانعة لها؛ لأن المدرسة هي الأخرى أوقفت لخدمة أرباب الوظائف من الصوفية بالتربة، فقد قُرِّر بها درس فقهٍ حَنَفِيٍّ في العلوم الشرعية من تفسير حديث شريف أو فقهٍ أو نحوٍ وصرفٍ[١].

وقام السلطان برسباي أيضًا بإنشاء مجموعة معمارية أخرى تجاه مدرسته على يَمْنَة السالك من قُبَّة النصر طالبًا قلعة الجبل المحروسة، وتتكون هذه المجموعة من زاوية وقفها برسباي للفقراء من المسلمين، وقُبَّة وقفها برسباي مسجدًا لله تعالى تُقام فيها الصلوات، ويُعتكف فيها على العبادات موطنًا للفقراء الأحمدية الرفاعية[٢].(شكل ٣٢)، (لوحة ٦٥).

ولم يَتَبَقَّ من هذه المجموعة سِوى القُبَّة التي تُعرف بالقُبَّة الرفاعيَّة (شكل ٣٢، لوحتا ١٧، ٦٥) وهي القُبَّة التي تُثبت وثيقة برسباي أنها أحد أعماله المعمارية، ويمكن أن نحدِّد تاريخ الانتهاء من بناء هذه المجموعة حوالي ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م اعتمادًا على ما جاء بالوثيقة[٣].

---

(١) وثيقة برسباي ٨٨٠ أوقاف ص٢٢١-٢٢٢.

(٢) انظر نص الوثيقة في محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص٧٣-٧٤.

Fernands: Op. Cit. pp. 146 – 147.

Abouseif (D.B.): An unlisted Monuments of the Fifteenth century "the Dome of zawiyat Al-DamirdasS Anales Islamolo-giques – Tome xv III-I.F.A.O.Le Caire, 1982).pp. 107-108.

(٣) محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص٣٧-٣٨.

هذا وقد نسبت هذه القبة على يد هوتكير وفييت إلى العصر العثماني، وأرجعها فهرست الآثار =

وقد حاول فرناند أن يُفسِّر بناء السلطان برسباي لثلاث منشآت للصوفية في مكان بالصحراء، فافترض لذلك عدة تفسيرات، منها أن السلطان برسباي أراد أن يحاكي أسلافه، بل ويتفوَّق عليهم، لا سيَّما وقد شاع منذ منتصف ق ٨هـ/ ١٤م أن يبني السلطان ضريحًا ملحقًا بمنشأة صوفية، وعلى ذلك فالسلطان برسباي لم يَشِذَّ عن تلك القاعدة، إلا أنه دمج الوظائف الاجتماعية والدينية في مُنشأة واحدة، كما أن بناء ضريحه بالقرب من منشآت الصوفية الثلاثة يعكس ارتباطه بفترة ما بعد الحياة، واستخدامه العميق لشعائر الصوفية أكثر من سلفه[١].

ويبدو أن هذه التفسيرات لم تُقنع فرناند تمامًا، فافترض تفسيرًا آخر اعتمد فيه على النصوص الكتابية التي وصفت برسباي بأنه محيي السُّنَّة وأنه الإمام الأعظم، وقد اعتُبر ذلك جزءًا من محاولة تهدف إلى تأكيد سلطته الروحية والزمنية، ومع ذلك فإن تشييد هذه المجموعات الثلاث للصوفية وتخصيص مبلغ شهري من ريع الوقف لزاوية وضريح ذي النون المصري بالقرافة، يبدو أنها تُحدِّد بدقَّة هذه الرغبة المطلقة لإثبات شرعيَّة حُكمه باللجوء إلى الصوفية[٢].

=

الإسلامية إلى (ق١٠هـ/ ١٦م)، وذكر سامي عبد الحليم أنها من أعمال الأمير يشبك من مهدي (٨٨٣هـ/ ١٤٧٩م)، ونسبها عثمان إلى الأشرف برسباي. محمد عبد الستار عثمان: الآثار ص١٩٠، حاشية١.

والواقع أن هذه القُبَّة وإن كانت أُنشئت في عهد برسباي، إلا أنها جُدِّدَت على يد الأمير يشبك من مهدي حيث إنها تشبه كلًّا من قبتيه بكوبري القبة، والقبة المعروفة بالفداوية.

ولمزيد من التفاصيل عن قباب الأمير يشبك انظر: سامي عبد الحليم إمام: الأمير يشبك من مهدي وأعماله المعمارية بالقاهرة: رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٩٦٩م).

(١) Fernands: Op. Cit. p. 155.

(٢) Fernands, op. Cit. p. 156.

والواقع أن الأشرف برسباي كان مغرمًا بالإنشاء والتعمير بدرجة كبيرة؛ فقد أنشأ مدرسته الأشرفية، ومجموعته بالصحراء، وجامعه بسرياقوس، وكان مجموع ما يُصرف على هذه المنشآت من الجوامك في الشهر مائة وعشرين ألف درهم[١].

وحذا أمراء الأشرف برسباي حذوه؛ فقام كلٌّ واحدٍ منهم بتعمير تربة خاصَّةٍ به بالصحراء، ومن هؤلاء الأمير كافور[٢] الصرغتمشي والأمير يشبك الأعرج[٣]، والأمير

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص٢٧٦.

(٢) هو الأمير كافور الصرغتمشي الرومي الطواشي الخازنداري، ذمام الآدر الشريفة، توفي في ربيع الآخر (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م)، ودُفن بتربته التي أنشأها بالصحراء، وكان قد عمل فيها خطبة وصوفية، ووقف عليها عدة أوقاف، وكان لا يزال يزخرفها ويجدّد ما زالت زخرفته منها، ويغضب ممن يسميها تربة.
العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر: تحقيق حسن حبشي: ج٣، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٩٥.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٥ ص١٤٣.
الصيرفي: نزهة النفوس: ج٣ ص١٢٦.
السخاوي: الضوء اللامع: ج٦ ص٢٢٦.
ابن إياس: بدائع الزهور: ج٢ ص١١٣.
وتذكر الوثيقة أن هذه المنشأة عبارة عن قبة جعلها الواقف خانقاة، ومن ثم عرفت بالقبة الخانقاة، وكانت تحتوي على عدة مكونات معمارية، منها فسقية للوضوء، ومعبد يحتوي على محراب، ومقعد، ومكتب السبيل، ومئذنة، وإصطبل، وميضأة، ومستحم، و لحوش، ومطبخ، وبيوت خلا، وساقية، وقاعة، وطباق، إلى جانب عدد من أرباب الوظائف بها. انظر نصّ الوثيقة في دولت عبد الله: الخوانق في العصرين الأيوبي والمملوكي: دكتوارة، غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٥٣-٢٥٤.

٣) هو الأمير يشبك الأعرج الساقي الظاهري برقوق، تنقلت به الأحوال إلى أن قدَّمه برسباي في محرم (٨٢٥هـ/ ١٤٢١م)، وعظَّم أمره، وعمله أتابكيًّا، توفي في (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من جامع طشتمر حمص أخضر.
=

حسن[١] نصر الله (شكل ٣٤)، (لوحة ٦٩) والأمير يشبك السودوني[٢]، وتمرباي التمربغاوي[٣]، والقاضي عبد

=

السخاوي: الضوء اللامع: ج١٠ ص٢٧٦-٢٧٧.

وبما أن قبة طشتمر حمص أخضر لا تزال باقية حتى اليوم بالصحراء، فهذا يعني أن تربة يشبك الأعرج كانت في المنطقة التي توجد بها هذه القبة.

(١) هو حسن بن نصر الله بن حسن، أصله من فوه، وولد بها (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م)، ثم قدم القاهرة وولي عدة وظائف جليلة في عهد فرج وشيخ وبرسباي، كالحسبة، ونظر الجيش والوزارة والخاصّ، والأستادراية وكتابة السرّ، توفي عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، ودفن بتربته بالصحراء خارج الباب الجديد عند ولده صلاح.

العسقلاني: أنباء: ج٣ ص١٠-١١.

السخاوي: الضوء: ج٣ ص١٣٠-١٣١.

هذا ولا تزال القبة التي دفن بها باقية للآن، وهي المشهورة بقبة نصر الله (كوز العسل) بالصحراء (لوحة ٦٩).

(٢) هو الأمير يشبك السودوني الأتابكي، ويعرف بالمشد، تولى عدَّة وظائف في عهد الظاهر ططر، وبرسباي، والعزيز، وجقمق، كإمرة الطبلخاناه، وشاد الشربخاناه السلطانية، وحاجب الحجاب، وإمرة مجلس، وإمرة سلاح، ثم الأتابكية، توفي (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، ودفن بتربته بالصحراء التي كان أنشأها بالقرب من تربة الأشرف برسباي.

ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور: حررها وليام ببر: ج١ (١٩٣٠م)، ص١٤٢-١٤٣.

السخاوي: الضوء: ج١٠ ص٢٧٧-٢٧٨.

(٣) هو الأمير تمرباي التمربغاوي، تمربغا المشطوب نائب حلب، تولى عدة وظائف في عهد ططر وبرسباي والعزيز وجقمق، منها الدوادارية الثالثة والثانية، وإمرة عشرة، وإمرة طبلخاناه، ورأس نوبة النوب، توفي في طاعون (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، ودفن بتربته التي أنشأها تجاه تربة الظاهر برقوق، كما أن له سبيلًا وقبةً ظاهر خانقاة سرياقوس.

السخاوي: الضوء: ج٣ ص٣٩.

الباسط[١] بن خليل، والأمير خشقدم الرومي[٢]، وعندما تُوفي السلطان جقمق في صفر ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، دُفن بتربة قاتيباي

---

(١) هو القاضي عبد الباسط بن خليل ناظر الكسوة الشريفة، تولى عدة وظائف في عهد المؤيد شيخ، وبرسباي، توفي (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، ودفن بتربته بالصحراء.
السخاوي: الضوء: ج٤ ص٢٥.
هذا ولم يستطع سامي نوار تحديد موضع هذه التربة بدقة، فيذكر أنها كانت تقع إلى الشرق من خانقاة فرج بن برقوق بجوار قُبة يونس الدوادار الموجودة حاليًا شمال شرق الخانقاة.
سامي نوار: الأعمال المعمارية ص٧٠.
واعتمادا على ما جاء ذكره في وثيقة السلطان إينال التي تذكر أن الحدَّ الغربي لتربته ينتهي إلى تربة المقرّ المرحوم عبد الباسط، ووثيقة الأمير قرقماس التي تذكر أن الحدَّ البحري ينتهي بعضه إلى تربة القاضي عبد الباسط، فإن هذا يدل على أن تربة عبد الباسط كانت تقع في الجهة الشمالية الغربية من هاتين المنشأتين، اللتين لا تزالان باقيتين لليوم.
انظر نصّ هذه الوثيقة في: عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٥٠.
محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير (الملحق الوثائقي) ص٢٦-٢٧.
سامي أحمد حسن: السلطان إينال، الملحق الأول من الرسالة ص٦.
وكانت هذه التربة تحتوي على عدة مكونات منها: الإيوان، والرواق، وقاعة الجلوس، والمقعد القمري، والسبيل، والصهريج، والمطبخ، والمخازن، والحوش الجنائزي، ومقصورتين للدفن إلى جانب عدد من أرباب الوظائف.
سامي نوار: الأعمال المعمارية ص٢٦٢-٢٧٠.

(٢) هو الأمير خشقدم الرومي اليشبكي، يشبك الشعباني الأتابكي، تولى عدة وظائف منها جمدارًا عند المؤيد، ثم ناب بعده في تقدمة المماليك، ثم نقله الأشرف إلى التقدمة نفسها في (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، ثم سجنه جقمق، ثم أطلقه، ورسم له بالإقامة في المدينة المنورة، ثم أذن له بالرجوع إلى القاهرة، حتى توفي (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من تربة أستاذة يشبك الشعباني، وكلاهما غير موجود.
السخاوي: التبر المسبوك ص٣٩٩، الضوء اللامع: ج٣ ص١٧٤.
ابن إياس: بدائع: ج٢ ص٨٥.

الجركسي التي جدَّدها وأنشأها عند دار الضيافة بالقرب من القلعة[١].

ج-عمران الصحراء في عهد الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م):

أمر الأشرف[٢] إينال بعمارة مجموعة معمارية ضخمة بالصحراء خارج باب

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع: ج٤ ص٧٤.

ويضيف السخاوي فيذكر أن هذه التربة صارت محلًا للملوك؛ فقد دفن بها جركسي أستاذ قانيباي، ثم الظاهر جقمق وولداه، وولد لقانيباي، ثم دُفن بها قانيباي بعد وفاته (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م). الضوء: ج٦ ص١٩٤-١٩٥.

وقد حدث خلط أو لبس لدى بعض الباحثين عند تحديد مكان تربة قانيباي الجركسي التي اندثرت وزالت تمامًا؛ لأنه دفن أولًا (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م) في جامعة الذي أنشأه عند دار الضيافة قرب القلعة، ثم نقلت رفاته إلى تربته التي بناها عند دار الضيافة بالقرب من القلعة كذلك، ومعنى هذا أن كلاً من الجامع والتربة كانا يجاوران دار الضيافة بالقرب من القلعة، ولتفسير ذلك يمكن القول بأنه كانت هناك داران للضيافة: إحداهما عند جامع قانيباي الجركسي بالرميلة جنوب غرب القلعة وهي الدار الحديثة، والأخرى شمال شرق القلعة وهي الدار القديمة التي بنى قانيباي تربته بالقرب منها في الصحراء.

عبد اللطيف إبراهيم: وقفية ابن تغري بردي (ندوة المؤرخ ابن تغري بردي، القاهرة ١٩٧٤م) ص١٩٤.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الوقفية تذكر أن تربة ابن تغري بردي كانت بالقرب من تربة الجمالي يوسف ناظر الخاص على يمين السالك بالدرب السلطاني طالبًا تربة السلطان جقمق، وتربة المرحوم كهنفوش. وقفية ص١٩٢.

وهذا النصُّ يدلُّ على أن تربة جقمق -أو التي دفن فيها جقمق- وهي تربة قانيباي كانت بالقرب من تربة إينال، والجمالي يوسف، وابن تغري بردي أمامها قبل الوصول إلى تربة كهنفوش التي كانت تقع بالقرب من تربة يشبك من مهدي التي كانت تقع قبلي القبة الفداوية.

(٢) يذكر مارجليوث أن السلطان إينال أراد أن يخلد اسمه كسابقيه من السلاطين، فبنى مدرسة =

النصر بجوار تُربة السيفي جرباش الكريمي[١] إلى جانب تُرَبٍ أخرى أشارت إليها الوثيقة[٢]. (شكل ٣٧) (لوحات ١٨-٢٠، ٧٠).

هذا ولم تُبنَ هذه المجموعة المعمارية مرَّةً واحدةً، وإنما بُنيت على ثلاث مراحل مختلفة، أشار إليها المؤرِّخون وأيَّدتهم النقوش الإنشائية[٣] المسجلة على جدران هذه المنشأة، وإن كان يوجد فارق بسيط يتمثل في ذكر الشهر الذي تمَّ فيه الفراغ من البناء[٤].

=

ومسجدًا وخانقاة في القرافة التي تحتوي بالفعل آثار بعض النبلاء من العصر المملوكي.

Margoliouth: Op. Cit. p. 119.

(١) هو جرباش الكريمي الظاهري برقوق، ويعرف بعاشق أو قاشق، تنقل في عدة وظائف مثل: الخاصكية، والسلحدارية، وأمير عشرة، ورأس نوبة، والحجوبية الكبرى، وأمير مجلس، ونيابة طرابلس، توفي في المحرم (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م).

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٦ ص١٨٣.

السخاوي: الضوء اللامع: ج٣ ص٦٦-٦٧.

٢) تذكر الوثيقة أنه يحيط بهذه المجموعة حدود أربعة: الحدُّ القبلي ينتهي إلى الطريق السلطاني وفيه الواجهة، والحدُّ البحري ينتهي إلى التربة المعروفة بأرغون والتربة المعروفة بالأمير كوكاي، والحدُّ الشرقي ينتهي بتربة تعرف بسودون وتربة ابن البرهان أو الدهان وتربة السادة الحنابلة، والحدُّ الغربي إلى تربة الأمير جرباش وتربة المقرّ المرحوم الزيني عبد الباسط.

انظر نص الوثيقة في عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٥٠.

دولت عبد الله: الخوانق في العصرين الأيوبي والمملوكي ص٢٧٠.

سامي أحمد حسن: السلطان إينال، الملحق الأول من الرسالة ص٦.

٣) Berchem: op. Cit. pp. 395, 400, 402.

٤) يُستدل من هذه النقوش أن الفراغ من بناء المدرسة -وهي آخر مرحلة من مراحل البناء- تم في ربيع الأول (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)، بينما يذكر المؤرِّخون أن ذلك تم في رجب من نفس العام، أي أن الفارق الزمني بين التاريخين حوالي أربعة أشهر فقط.

=

وكان نواة هذه المجموعة بناء مدفن ذي قُبَّة عندما كان إينال أتابكًا للعسكر في عهد السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) وذلك في عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م؛ أي قبل أن يلي إينال العرش بعامين[١].

وعمَّر السلطان إينال بعد ذلك تُربته، فيذكر ابن إياس في حوادث ربيع الأوَّل ٨٥٨هـ/ ١٤٥٣م أن السلطان نزل من القلعة، ثم توجَّه نحو الصحراء بسبب تربته التي أنشأها، فلما عاد شقَّ من القاهرة وصَعِد إلى القلعة، وهذا أوَّل ركوبه في سلطنته، فكان له يوم مشهود[٢].

=

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير (الملحق الوثائقي) ص١٣٨، حاشية ٥.

(١) سامي أحمد حسن: السلطان إينال ص٩٦.

هذا ويذكر مارجليوث أن هذا الضريح يعتبر المثال الوحيد لأثر بدأ بناءه أمير، ثم فرغ من بنائه نفس هذا الأمير وهو ملك.

Marglouth: op. Cit. p. 199.

وهذا القول لا يمثل الحقيقة كلها؛ لأن السلطان قايتباي بني تربة لأولاده، وهو لا يزال أميرًا ثم ألحق بها منشأة كبرى بعد أن ولي السلطنة، وعلى ذلك فإن مدفن إينال هو المثال الأوَّل وليس الوحيد. هذا ولا يزال هذا المدفن قائمًا بالركن الشمالي الشرقي من المدرسة، ويتصلان ببعضهما عن طريق دهليز مستطيل، أي أنهما ليستا كتلة بنائية مندمجة مع بعضهما، مما جعل واجهات كل من المدفن والمدرسة ليست على قدر واحد من الارتفاع، بل مختلفة؛ لأن جُدْران مربع المدفن قصيرة، بينما جدران المدرسة مرتفعة، وهذا يبين أن مراحل إنشاء كل منهما مختلفة، فالمدفن بني (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، بينما المدرسة (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م).

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير (الملحق الوثائقي) ص١٣٦-١٣٧، الحداد القباب ص٥٢.

(٢) ابن إياس: بدائع: ج٢ ص٣١٨.

محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار المعارف بمصر ١٩٥١م، ص١٩.

أمَّا عن بناء المدرسة، فيذكر ابن إياس في حوادث ذي القعدة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م أن الجمالي[١] ناظر الخاصّ شرع في بناء مدرسة للسلطان، فجاءت مدرسة حافلة لم يُعمَّر في الصحراء مثلها، وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاصّ دون مال السلطان، فقيل: إنه صرف عليها اثني عشر ألف دينار وزيادة على ذلك، وأنشأ زاوية تجاه هذه المدرسة وحوشًا لدفن جماعة السلطان[٢].

وتمَّ الفراغ من عمارة هذه المدرسة وخُطب بها، وعمل السلطان هناك وليمةً حافلةً، ومدَّ بها الأسمطة العظيمة في رجب ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م[٣].

والواقع أن لفظ التربة الذي ورد في المصادر التاريخية والوثائق[٤] لم يرد

---

(١) هو يوسف بن عبد الكريم بن بركة، ويعرف بابن كاتب جكم؛ لكون جده كان كاتبًا عنده، ولد عام (٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، تنقل في عدة وظائف، منها نظر الخاص ونظر الجيش وصارت الأمور كلها في يديه إلى أن توفي في عام (٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م).
السخاوي: الضوء اللامع: ج١٠ ص٣٢٢-٣٢٣.

(٢) محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص٣٤.

(٣) ابن إياس: بدائع: ج٢ ص٣٣٣.
محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص٣٨.
يستدل من النقش الإنشائي للمدرسة أن ابتداء عمارتها كان في شهر ذي القعدة، وآخرها كان في شهر ربيع الأول (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م).
Berchem: Op. Cit. P. 402.
وهذا النقش يخالف ما ذكره ابن إياس من أن بداية عمارة المدرسة كان في ذي القعدة من العام السابق؛ أي عام (٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م)، وأن نهاية عمارتها كانت في رجب من عام (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)؛ أي بعد حوالي ٤ أشهر كما سبق القول.

(٤) ورد هذا اللفظ في وثيقة كل من أبي زكريا يحيى رئيس المجبرين والجرائحية ووثيقة أمير كبير قرقماس.

=

بالنقوش الإنشائية المسجلة على جُدران المنشأة، والتي ورد بها فقط كلٌّ من لفظ القُبَّة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، والخانقاة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، والمدرسة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م.

وبما أن المكونات المعمارية التي جاءت بوثيقة[١] إينال هي نفسها المكونات التي تَرِد عادة في الوثائق الخاصَّة بالتربة التي أُنشئت[٢] بالصحراء، فإن هذا يدل على أن لفظ التربة إنما أُريد به الخانقاة، يؤكد ذلك أن الفراغ من بناء الخانقاة، كما جاء بالنقش الإنشائي كان في المحرم ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، وهو نفس العام الذي تذكر المصادر[٣] أن السلطان إينال توجه إلى الصحراء في ربيع الأوَّل ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، بسبب تُربته التي أنشأها هناك، أي أن زيارة السلطان لتربته -أي خانقاته- جاءت بعد الفراغ من بنائها بنحو شهرين، ومن ثَمَّ فإن إضافة المدرسة للتربة كانت موجَّهة لخدمة أرباب الوظائف بها.

=

عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٤٩.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير (الملحق الوثائقي) ص١٨.

(١) ورد بالوثيقة أن حوش التربة يحتوي على عدة مكونات معمارية، هي: القبة المدفن، والسبيل، والصهريج، وقاعة تشتمل على إيوانين، ودور قاعة، وطبقة تشتمل على إيوان ودور قاعة، ورواق يشتمل على إيوانين متقابلين ودور قاعة، وثمانية خلاوي بمنافع، وحقوق، ومقعد ومقصورة، وميضأة، وبيوت خلا، ومطبخ، وإصطبل، وخمسة حواصل، وحوش برسم أبقار الساقية، وحوض للدواب.

انظر نص الوثيقة في دولت عبد الله: الخوانق في العصرين الأيوبي والمملوكي ص٢٦٦، ٢٧٠، سامي أحمد حسن: السلطان إينال، الملحق الأول من الرسالة ص٣، ٤، ٥، ٦.

(٢) انظر النقطة رابعًا من هذا الفصل.

(٣) ابن إياس: بدائع: ج٢ ص٣١٨.

محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص١٩.

وقام الأمراء أيضًا بتعمير ترب لهم في الصحراء، ومنهم الأمير برسباي البجاسي[١] (شكل ٣٨)، (لوحة ٧١)، والأمير جرباش[٢] الكريمي، والجمالي يوسف[٣] ناظر

---

(١) هو الأمير سيف الدين برسباي بن عبد الله البجاسي، توفي عام (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م).
ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣ ص٢٧٩، ٢٨٣.
هذا ولا تزال هذه التربة قائمة إلى اليوم بصحراء المماليك، وإن كانت أغلب محتوياتها مندثرة، فلم يتبقَّ منها سوى المدخل الرئيسي في الركن الشمالي من الواجهة الشمالية الشرقية، وتحمل عضادتيه النقش الإنشائي لهذه التربة التي تم الفراغ من بنائها في عام (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م).
Berchem:op. cit. vol,2, pp. 409-410.
وإلى جانب المدخل توجد قبة المدفن التي لم يدفن فيها مُنْشِئُها؛ لأنه توفي خارج مصر، والأسوار التي تحيط بالتربة، وبداخلها المحراب والمنبر إلى جانب رجل عقد ملاصق للجدار الشمالي الشرقي للقبة، والحوش الذي بُنيت فيه فيما بعد قُبة الأمير سليمان أغا (٩٥١هـ/ ١٥٤٤م).
Prisse d' Avennes; L'arte Arabe, pl, 28.
مما سبق نرى أنه لا يقصد بالتربة المدفن ذا القبة، وإنما يقصد بها المنشأة التي تحتوي على أكثر من وحدة معمارية كما سبق القول.

(٢) كانت تربة جرباش تقع في الحد الغربي من تربة السلطان إينال كما ذكرت الوثيقة، هذا ولا تزال بقاياها قائمة إلى اليوم في الجهة الجنوبية من حوش إينال، وقد اكتشفت بحوشها مقابر كثيرة إلى جانب محراب في صدر الحوش، وعلى يمينه مدفن عبارة عن المربع السفلي فقط، أما القبة فغير موجودة، وفي الجانب الشمالي الغربي من الحوش يوجد مجموعة من الخلاوي، ولا يزال يوجد بصحن الحوش بقايا المدافن التي عثر عليها أسفل أرضية الحوش، ويبلغ عدد المقابر المكتشفة (١٢٨) مقبرة.

(٣)عن ترجمته: انظر حاشية ١ ص ١٩٣ من هذا الفصل، وكانت تربته تقع على يمين السالك بالدرب السلطاني طالبًا تربة السلطان جقمق وتربة كهنفوش، وبصفة عامَّة كانت تقع في مواجهة منشأة السلطان إينال من الجهة الجنوبية الشرقية في الموضع الذي تشغله اليوم عدة ترب لكل من شويكار هانم وخديجة حليم، والترب المجاورة لها أو التي حولها، ومن =

الخاصّ، والأمير يونس[١] العلائي، والأمير يونس[٢] المؤيِّدي، والأمير كزل السودوني[٣].

=

المؤسف حقًّا أن يقوم أحد الباحثين بنشر وقفية المؤرِّخ ابن تغري بردي على تربته، وكانت تجاه منشأة الأشرف إينال بالقرب من تربة الجمال يوسف السابق الإشارة إلى تحديد موضعها العام على أنها وقفية الجمالي يوسف لتربته بالموضع نفسه، وحصل على درجة الماجستير، ولا أدري كيف؟؟؟

عادل شريف: الأعمال المعمارية ليوسف بن عبد الكريم بن بركة الشهير بالجمالي يوسف: رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب سوهاج، جامعة أسيوط (١٩٨٢م).

(١) يونس العلائي الناصري فرج، تنقل في عدة وظائف كالخاصكية وإمرة عشرة، وناب في نيابة القلعة، ونائب الإسكندرية، وأمير أخور، توفي (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء والتي زالت من الوجود تمامًا.

السخاوي: الضوء اللامع: ج١٠ ص٣٤٦.

(٢) يونس الأقباي، أقباي المؤيدي نائب الشام، ويعرف بالمشد وبالبواب، صار خاصكيًّا في الدولة المظفرية، وبوابًا في الأشرفية، وساقيًا في الظاهرية، ثم أمير عشرة، وشاد الشربخاناه والدوادارية الكبرى، توفي (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)، ودفن بتربته العظيمة التي أنشأها بالصحراء.

السخاوي: الضوء: ج١٠، ص ٣٤٥.

(٣) كزل السودوني نائب دمشق، ويعرف بالمعلم، جعله المؤيد من معلمي الرمح، ثم من رءوس النوب في أيام الأشرف، وأخرجه الظاهر في (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) إلى مكة لشيء قديم في نفسه أميرًا على الراكز بها فدام بها إلى أواخر (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)، فأخرج إقطاعه وعاد في السنة التي بعدها، ثم أنعم المنصور عليه بإمرة عشرة إلى أن مات (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء، والتي زالت من الوجود تمامًا.

السخاوي: الضوء: ج١ ص٢٢٧-٢٢٨.

د-عمران الصحراء في عهد السلطان خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م):

أمر السلطان خشقدم بعمارة تربته بالصحراء بالقرب من قُبَّة النصر، ونقل إليها رخام بيت أحد أمرائه بعد أن قبض عليه وصادره[١]، وعمَّر الأمراء أيضًا تُرَب لهم بالصحراء، ومنهم كسباي[٢] الناصري، وأبي زكريا يحيى[٣]،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج١٦ ص٢٦٧، السخاوي: الضوء: ج٣ ص١٧٥-١٧٦. ابن إياس: بدائع: ج٣ ص٢٩٠، ٣٩٣، ٤١١، ٤٥٧. محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١١٠، ١١٣، ١٨٤.

وقام السلطان خشقدم بدفن الشيخ سعد الدين الديري الحنفي (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م) بتربته تبرُّكًا به، وكذلك الشيخ عمر الكردي (٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م)، لنفس الغرض، ودفنت بها أيضًا في (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م) ابنة خوند الأحمدية، وهي والدة الشهابي أحمد بن عبد الرحيم العيني، وكانت ربيبة السلطان في مقام ابنته.

السيوطي: حسن المحاضرة: ج١ ص٤٧٤، ابن إياس: بدائع: ج٢ ص٤١٣، محمد مصطفى، صفحات ص١٢١-١٢٢، ١٣٤.

أما الأمير الذي قبض عليه خشقدم وصادره، فهو الصاحب علاء الدين بن الأهناسي الذي أخذ منه نحوًا من مائة ألف دينار، ثم فكَّ رخام بيته ببركة الرطلي ونقله إلى تربته، وكان ذلك في محرم (٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م).

ابن إياس: بدائع ص٤١١، ٤٥٧. محمد مصطفى، صفحات ص١٨٤.

(٢) كسباي الششماني الناصري ثم المؤيدي، أحد أمراء الطبلخاناه ومعلمي الرمح، وتولى أيضًا الخاصكية، والدوادارية، وإمرة عشرة، وساق المحمل، توفي (٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء، والتي زالت من الوجود تمامًا.

السخاوي: الضوء اللامع: ج٦ ص٢٢٨-٢٢٩.

(٣) تذكر الوثيقة أن هذه التربة أنشأها الواقف بخطٍّ الصحراء تجاه تربة مولانا السلطان إينال، وذكرت أيضًا حدودها الأربعة وما يحيط بها من ترب على النحو التالي: إن شرقي التربة توجد تربة المقر المرحوم جاني بك الناصري، وغربيها تربة الجناب العالي الشهابي أحمد دوادار المقر المرحوم السيفي قانيباي الجركسي أمير أخوركان، أما قبليها فتقع تربة المقر المرحوم السيفي قانم من صفر خجا أتابك العساكر المنصورة بالديار المصرية كان، وشمالها تربة =

والأمير قانم[١] من صفر، وجانبك[٢] الناصري، ومغلباي[٣] طاز، وقان

=

السلطان إينال المجاورة لتربة المقرّ الأشرف المرحوم الجمالي ناظر الخواص الشريفة كان...حجة وقف أبو زكريا رئيس الجراحين (دار الوثائق القومية بكورنيش النيل، رقم ١٥٤ محفظة؛ رقم ٢٤.

عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٤٩، هذا ويستدل من حقة الوقف أن هذه التربة كانت كغيرها من التراب تشتمل على حوش به خمسة أبواب دائرة وبصدر الحوش إيوان كبير بصدره محراب وبالأيون مقصورتان متقابتلان بهما فساقي لدفن فضلًا عن قاعة عبارة عن أيوان در قاعة وغير ذلك من المنافع والمرافق والحقوق وهو ما سنشير إليه تفصيلًا في القسم الثاني من الكتاب.

(١) قانم من صفر خجا الجركسي المؤيدي شيخ، ويعرف بالتاجر، تولى الخاصكية والدوادارية الصغرى، وإمرة عشرة والطبلخاناه، والتقدمة، ورأس نوبة النوب، وأمير مجلس، توفي (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م)، ودفن بتربته الصحراء. السخاوي: الضوء: ج٦ ص٢٠٠، ٢٠١، محمد مصطفى، صفحات ص١٦٨.

وكانت هذه التربة تقع شرقي (شمالي) تربة أبي زكريا يحيى رئيس المجبرين والجرائحية التي كانت تجاه تربة السلطان إينال.

عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار ص٤٤٩.

(٢) جانبك الناصري فرج، ويعرف بالمرتد، أصله من عتقاء الناصر، ثم توجه بعده إلى جركس، ثم عاد إلى مصر، فقيل له المرتد، تولى الخاصكية، وإمرة عشرة، وباشر السقاية أيامًا حتى صار من رءوس النوب، ثم من أمراء الطبلخاناه، ومات (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرب من تربة إينال بالصحراء.

السخاوي: الضوء: ج٣ ص٦٠-٦١.

وكانت هذه التربة تقع إلى الشرق من تربة أبي زكريا يحيى السابقة التي كانت تجاه تربة السلطان إينال.

عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق ص٤٤٩.

(٣) هو الأمير مغلباي طاز الأبو بكري المؤيدي، أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية، مات بدمياط بطالًا في عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء.

=

بردي[١] الأشرفي، وقانم[٢] طاز.

هذا ولم يقتصر بناء التُّرَب في الصحراء على السلاطين والأمراء، بل وقام بعض المؤرِّخين ببناء تُرَب لهم أيضًا، ومنهم المؤرِّخ أبو المحاسن بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) الذي بنى له تربة هائلة بالقرب من تربة الأشرف إينال، ووقف كتبه وتصانيفه بها[٣].

=

ابن إياس: بدائع: ج٣ ص٢٠.

(١) قان بردي الأشرفي إينال، أحد الدوادارية الصغار، تنقل في الوظائف إلى أن صار أحد مقدمي الألوف في عهد قايتباي، وتوفي عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، ودفن بتربته التي أمر بإنشاءها بالريدانية عند الحوض الخراب.

ابن تغري بردي: حوادث الدهور: ج٣ ص٧٢٨.

السخاوي: الضوء اللامع: ج٦ ص١٩٧.

ويدل هذا النص على أن الصحراء امتدت حتى وصلت إلى الريدانية.

(٢) هو الأمير قانم طاز الأشرفي، أحد مقدمي الألوف في عهد قايتباي، توفي بحلب (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، ولم يدفن بتربته هذه التي أنشأها بالصحراء، وكانت بجوار منشأة قرقماس، بل وأوصى قرقماس في وقفيته بأن يخصص مبلغ ٤٨ درهمًا ثمن ريحان وبقولات رطبة وجريد توضع على قبر ابنتيه بتربة قانم طاز، كما خصص مبلغًا آخر لحمل ماء النيل المبارك في أيام زيادته إلى الصهريج الكائن بهذه التربة.

محمد مصطفى نجيب: مدرسة الأمير كبير (الملحق الوثائقي) ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٣٠٨.

ويذكر الصيرفي أنها كانت في مقابلة تربة الجمالي يوسف ناظر الخاص.

الصيرفي: أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٨٢.

هـ-ازدياد عمران الصحراء في عهد السلطان قايتباي: (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٥م)

يعد عهد السلطان قايتباي من أعظم عهود سلاطين المماليك، بعد عهد الناصر محمد بن قلاوون، فكثر الإنشاء والتعمير في عهده كثرة بالغة[١].

أما الوثيقة فتذكر أنها تقع على يَمنة السالك بالدرب السلطاني طالبًا تربة السلطان جقمق وتربة الشيخ كهنفوش، وكان يحدُّها حدود أربعة:

الحد القبلي ينتهي إلى الصحراء وقبة النصر وبه القبلة.

والحد البحري ينتهي إلى الطريق -الدرب السلطاني- وفيه الباب والشبابيك،

والحد الغربي ينتهي إلى طريق فاصلة بين هذا المكان وبين تربة تعرف بزاوية الملك الأشرف إينال.

والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق وقبة النصر.

عبد اللطيف إبراهيم: وقفية ابن تغري بردي ص١٩٦.

وكانت هذه التربة تحتوي على عدة مكونات معمارية منها: الإيوان، والقاعة، والرواق، والسبيل، والكتاب، والصهريج، والطباق، والخلاوي، والحوش الكبير، وفساقي الدفن، والإصطبل، والمطبخ، والمراحيض إلى جانب أرباب الوظائف الموجودين بالتربة.

عبد اللطيف إبراهيم: وقفية ص٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٤.

ويدل نص الوثيقة هذا على أن التربة يقصد بها المنشأة التي تحتوي على أكثر من وحدة معمارية، وبما أن هذه الوحدات توجد عادة كلها أو بعضها في الخانقاوات، فهذا يدل على أن هذه التربة كانت خانقاة.

(١) اتفق العلماء والباحثون على أن القاهرة تدين لعهد هذا السلطان بعدد كبير من الآثار الرائعة التي بنيت بواسطة السلطان نفسه، أو على يد أمرائه الذين رغبوا في تقليده، ولا يخلو أي كتاب أو بحث تناول آثار القاهرة إلا وتحدث عن عمائر السلطان قايتباي، وأشاد بها، ومنهم من اعتبر مجموعته بالصحراء أدق وأرشق أثر عربي يتاح للمرء أن يراه، كما أنه مثال لأجمل الآثار الهندسية العربية في (ق ٩هـ/ ١٥م)، أو أنها من أروع العمائر الإسلامية الجنائزية والدينية في مصر. كلوت بك (أ) لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، القاهرة ١٩٢٤م، =

وقام السلطان قايتباي ببناء مجموعة معمارية ضخمة بالصحراء بالقرب من الشيخ عبد الله[١] المنوفي (لوحة ٧٣)، وبجوار تربة [٢] عبد الغني، وابن مزهر[٣]، ومنكلي بغا[٤] الفخري.

=

ج٢ ص٨٢٩-٨٣٠.

عبد الرحمن عبد التواب: قايتباي المحمودي (الاعلام، العدد ٢٠) القاهرة ١٩٧٨م، ص١٨٦.

Lane-pool: Op. Cit. p. 342,

Devonshire: Some Cairo Mosques and Their founders, (London, 1921) p. 70.

(١) هو الشيخ الصالح العابد عبد الله محمد بن سليمان المنوفي المغربي المالكي، كان من كبار الأولياء، وله كرامات خارقة، توفي عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، أو (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، حسب أقوال المؤرخين، ودفن بالصحراء، ولا تزال مقبرته قائمة أمام مجموعة السلطان قايتباي من الجهة الشرقية.

السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٢٥-٥٢٦.

السخاوي، تحفة الأحباب، ص٤٨، ٥٢.

ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٥٢٨.

الشعراني، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢.

(٢) لم أستطع العثور على ترجمة لصاحب هذه التربة -الذي لم تحدد الوثيقة اسمه كاملًا- فيما وقع بين يدي من مصادر.

(٣) هو أبو بكر بن محمد بن محمد بن البدر الأنصاري الدمشقي الأصل القاهري الشافعي، ويعرف بابن مزهر، ولد عام (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، وتولى عدة وظائف، منها نظر الإصطبل ووكالة بيت المال وكتابة السر ونظر الجيش، وتوفي عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، ودفن بتربته هذه، وكانت تربة هائلة اشتد حرصه على دفن غير واحد من العلماء والغرباء والصالحين بها.

السخاوي الضوء اللامع، ج١١، ص٨٨-٨٩.

(٤) لا تزال هذه التربة باقية لليوم في الجهة الجنوبية الغربية من مجموعة السلطان قايتباي، وقد سبق الحديث عنها.

=

هذا ونلاحظ أن هذه المجموعة بُنيت على مرحلتين: الأولى وقت أن كان قايتباي أميرًا فأمر ببناء مدرسة لطيفة؛ عبارة عن "تربة بإيوانين، ودور قاعة، وفسقية، وقبة لطيفة استخدمت كمدفن لأولاد السلطان قايتباي[١]". (شكل ٣٩)، (لوحة ٧٢).

وأُلحق بهذه التربة عدة ملحقات: عبارة عن مقعد، وأروقة مخصصة لإقامة السلطان قايتباي وزوجته فاطمة[٢] عند زيارتها للقبة المدفون بها أولادها، أو لأبيها الذي عمَّر تربة بداخل الحوش اللطيف[٣]، إلى جانب سبيل صغير لتسبيل الماء العذب، ومطبخ، ومرحاضين، وإصطبل يشتمل على طوالة مقام أربعة رءوس خيلًا[٤].

ويرجع بناء هذه المدرسة اللطيفة، أو التربة القديمة بعد عام (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) أي قبل تولي قايتباي السلطنة، وبالتالي قبل الشروع في بناء

=

انظر ص ١٥٤ من هذا الفصل.

(١) حجة وقف قايتباي أوقاف ٨٨٦، ص٣١-٣٣.

حسني نويصر، منشآت السلطان قايتباي الدينية بمدينة القاهرة، دكتوراه، غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢١.

(٢) خوند فاطمة ابنة العلائي علي بن خاص بك، وهي زوجة الملك الأشرف قايتباي، ثم العادل طومان باي، توفيت (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، وكانت لها جنازة حافلة.

ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٦٤.

علي مبارك، الخطط، ج٣، ص٩٧-٩٨.

(٣) هو العلائي علي بن خاص بك صهر السلطان قايتباي.

حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص٣٠، ٣٣.

(٤) حسني نويصر، منشآت، ص٢١.

مجموعته الكبرى (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، وذلك اعتمادًا على أحد الرنوك[١] بها، والتي ورد فيها شعار وظيفة أمير طبلخاناة مع شاد الشرابخاناة التي تولاها قايتباي في عهد السلطان خشقدم (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م).

وعلى ذلك تثبت هذه الرنوك المكتشفة بالتربة أنها بُنيت في حياة الأمير قايتباي،

---

(١) الرنك: كلمة فارسية بمعنى اللون، وقد استعملت للدلالة على الشارة أو العلامة التي يتخذها الإنسان لنفسه وينفرد بها دون غيره، وكان الرنك يشتمل على رسم شيء معين كحيوان أو زهرة أو أداة، وربما اشتمل على أكثر من شيء واحد، وقد يتألف من منطقة واحدة أو ينقسم إلى منطقتين أو ثلاث مناطق أفقية، وقد يكون من لون واحد أو أكثر، وقد تختلف الرنوك بعضها عن بعض، ليس فقط من حيث الشيء المرسوم والتقسيم، ولكن أيضًا من حيث التلوين، وكان من الشائع أن ينقش أو يضرب الرنك على الأشياء الخاصَّة بصاحبه، سواء أكانت عمائر أم ثيابًا أم أواني أم غير ذلك، وكان الرنك في عصر المماليك امتيازًا خاصًّا للسلطان والأمراء فقط، ومن المرجّح أن هيئة الرنك كانت ذات صلة بالوظيفة التي يشغلها صاحبه عند تأميره ومنحه الرنك.

حسن الباشا، المشكاة (بحث في كتاب القاهرة تاريخها فنونها آثارها، ص٥٩٦).

ولمزيد من التفاصيل انظر، محمد مصطفى، الرنوك في عصر المماليك (مجلة الرسالة، العدد ٤٠٠، مارس ١٩٤١م، ص٢٦٨، ٢٧١.

جمال محرز، الرنوك المملوكية، مجلة المقتطف، الجزء الخامس، مج ٩٨، مايو ١٩٤١م، ص٤٧١.

حسين راشد، الرنوك في مصر في العصور الوسطى، (مجلة السياحة، ديسمبر ١٩٥٨ م)ص٢٣-٢٩.

سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٣، ص١٦-١٧، أحمد عبد الرازق، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، ص٦٧-١٠١، الرنوك الإسلامية، جامعة عين شمس ٢٠٠١م، ص ٧-٢٥٧، لوحات ١-٢٢؛

مايسة محمود داود، الرنوك الإسلامية، مجلة الداره، العدد ٣، السنة ٧، السعودية ١٩٨٢م)، ص٢٧-٤٠.

بعد تقلُّده لوظيفة الشرابخاناة (٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)، وقبل تسلطنه (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)؛ لأنها لو بُنيت، وهو سلطان، لما وجدنا هذه الرنوك الدالة على الوظائف، ولتحولت إلى خراطيش كتابية -دروع- كالتي وجدت على مدرسته الكبرى[١].

وعندما تولى قايتباي السلطنة (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)، شرع في عمارة تربته بالصحراء[٢] وذلك في شوال (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، على حد قول ابن إياس[٣]، وقد وصفها السخاوي، فذكر أنها "تربة بالرونق البهج تفي، وبجانبها مدرسة للجمعة والجماعات، ولاجتماع الصوفية بها في سائر الأوقات، وبها خزانة كتب شريفة جليلة منيفة، وعمل بكل من جانبها وتجاهها ربعًا للصوفية موطنًا، ووضعًا، وسبيلًا وصهريجًا، وحوضًا للبهائم، بهجًا يعلوه كتاب للأيتام، مزيل للأكدار والآثام، كلُّ هذا سوى الربع الذي عمله الدوادار الكبير ليتسع به الصوفي والفقير، والصهريج العظيم للقاطن المقيم[٤].

---

(١) حسني نويصر، منشآت، ص٦٢-٦٥.

(٢) الغزي (الشيخ نجم الدين).

الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبور، ج١، بيروت ١٩٤٥م، ص٢٩٩.

ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٨-٩.

(٣) ابن إياس، بدائع، ج٣، ص٤٥.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٨.

ويكاد يتفق ابن إياس مع السخاوي في أن السلطان جعل بتربته "جامعًا بخطبة وقرّر بها صوفية وحضورًا بعد العصر، وأنشأ هناك عدَّة خلاوى برسم الصوفية وحوضًا وصهريجًا وأشياء كثيرة من وجوه البرِّ والمعروف.

ابن إياس، بدائع، ج٣، ص٤٥.

وتمدُّنا حجة الوقف بتفاصيل أكثر عن مجموعة السلطان؛ فتذكر أنها جميع المكان الجامع المعمور بذكر الله تعالى، والقبة المدفن، والسبيل بجوار بابه الكبير، وكُتاب السبيل علوه، وحوض[١] السبيل، (شكل٤٠)، لوحات (٢١-٢٨، ٧٤-٧٧) والساقية...[٢].

إلى جانب الحوش الكبير الذي وقفه لدفن عتقائه وغيرهم ومن يلوذ به[٣] والحواصل والخرستانات، والخلاوى، والخزاين الكتبيات التي بالجامع المذكور، وبالأماكن الملاصقة والمجاورة له المعدة للسكن، والاحراز علوًا وسفلًا لينتفع بها الشيخ والصوفية، وأرباب الوظائف بالجامع المذكور[٤]، وغير ذلك من المنافع والحقوق والمرافق.

هذا ويستفاد من حجة الوقف أيضًا وجود عدة طباقات[٥] لينتفع بها أيضًا

---

(١) يقصد بحوض السبيل حوض سقي الدواب الذي ورد بالحجة وصفه، فذكرت أنه حوض سبيل كبير بجواره فسقية بصدر الحوض ثلاثة مجارٍ حجرًا يعلوها رنوك مذهبة، سقف الحوض المذكور معلق على ثلاثة أعمدة حجرًا مشهرًا يعلوها رفرف... أسفل هذا السقف ذلاقة حجرًا تجاه الحوض المذكور ببالوعة في تخوم الأرض، كامل المنافع والمرافق والحقوق، وقد أعد هذا الحوض لينتفع به في سقي الدواب للمارين على ذلك المكان، والمترددين إليه، وغير ذلك من الانتفاعات الشرعية على العادة في ذلك وجعله سبيلًا لله.
حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص٣٦، ١١٧.

(٢) حجة قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١٢.

(٣) حجة قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١١٥.

(٤) حجة قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١١٩.

(٥) الطباق والطباقات، ومفردها طبقة، وتتكون من خزانة أو حجرة نومية أو حجرتين للنوم، ملحق بها منافع ومرافق وحقوق، تتمثل في مزيرة ومرحاض، وكانت تسل (تغطى) بالبياض، وتفرش بالبلاط وتسقف نقيا، ويفصل الطبقة عن الأخرى جنب غرد، أو تكون =

الشيخ والصوفية، وأرباب الوظائف[١].

وكان الطباق الأول يلاصق المدخل الرئيس من الجهة الشمالية، إلا أنه اندثر ولا يوجد منه إلا بقايا من الواجهة الجنوبية الشرقية والملتصقة بواجهة المدخل (لوحة ٢٥).

ويبدو أنَّ هذا الطباق ظل باقيًا حتى القرن (١٣هـ/ ١٩م)، كما يتضح من لوحات كل من بسكال كوست[٢] وروبرت ديفيد[٣] (لوحتا ٢٥-٢٦).

أما الصور التي أخذت لمنشأة قايتباي، منذ أوائل القرن العشرين المنصرم، فيتضح فيها مدى الإهمال الذي تعرَّض له هذا الطباق، مما أدى إلى خراب، واندثار أجزائه العلوية، كما يتضح من الصور التي وُردت في مؤلفات كل من سلادين[٤]

=

الطبقة من رواق صغير يحوي إيوانًا ودور قاعة أو رواق كبير يحوي إيوانات تتوسطها دور قاعة ذات منافع ومرافق وحقوق تتمثل في طبقة نومية ومرحاض، وكلُّ طبقة من الطباقات أو رواق من الأروقة السابقة يتلاصق ويتجاور مع الآخر ويعلو بعضه بعضًا من طابقين أو أكثر ليتكون من مجموعها الطباق.

عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، دكتوراه، غير منشورة، مخطوط، جامعة القاهرة ١٩٥٦م، معجم المصطلحات الفنية، ص هـ-و.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير كبير قرقماس، ص٣٧٤-٣٧٥.

(١) حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص٣٤-٣٦، ١١٩.

(2) Cost (P.): Architecture Arabe au Monuments du Kaire (paris, 1839). Pl. xxx II.

(3) Roberts (D): Egypt & Nubi (London, 1849)

(4) Saladin (H): Manuel d'art Musulman-vol) 'I' Architecture, (paris, 1907) fig, 99.

وفاجو[١] (لوحتا ٢٧-٢٨).

أما الطباق الثاني، فكان يواجه المنشأة من الجهة الجنوبية الشرقية، كما يتضح ذلك من نص الوثيقة التي ذكرت أنه يوجد في مواجهة المنشأة "طباق، ورواق معد ذلك لسكن الشيخ والصوفية..."[٢].

وإذا كان هذا الطباق المواجه للمنشأة غير موجود الآن، فقد حلَّ محله قهوة حديثة، ودورة مياه، إلا أنه كان موجودًا على أقل تقدير حتى (ق ١٣هـ/ ١٩م)، كما يتضح من لوحتي كل من بسكال كوست، وروبرت ديفيد السابقتين(لوحتا٢٥-٢٦).

هذا وقد أقام السلطان قايتباي مبنى آخر يوازي الطباق الشمالي الذي كان يلاصق المدخل الرئيس للمنشأة في الامتداد، والاتجاه على مسافة غير بعيدة من حوض السبيل، وقبل الوصول إلى تربة الأشرف برسباي السابقة، ولم يتبقَ من هذا المبنى سوى واجهته الجنوبية الشرقية (لوحة ٢٤)، التي لا تزال محتفظة بكيانها المعماري إلى حد كبير، ويتوسط هذه الواجهة مدخل في داخله معقودة بعقد مدائني، ويعلو هذا المدخل المطمور حاليًا إلى منتصفه نقش كتابي[٣] يُبين أنَّ هذا المكان أمر بإنشائه السلطان قايتباي، إلا أن هذا النقش لا يتضمن تاريخ الإنشاء، كما أنه في ذات الوقت لم يحدد ماهيَّة هذا البناء أو الغرض الذي من أجله أُنشئ.

ومن ثَمَّ تضاربت آراء العلماء حوله، فذكر فان برشم أنه وكالة[٤]، بينما رفض

---

(1) Fago (V): Arte Araba (Roma, 1909) pl.. xxx l.

(٢) حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١١٩.

(٣) ورد هذا النقش بالصيغة الآتية "أمر بإنشاء هذا المكان المبارك سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي نصره الله".

(4)Berchem: Op. Cit, Vol 2, pp. 438, 439.

كريزول ذلك، وأعتقد أنه[١] رَبْعٌ على أساس أنه لا يحتوي على الفناء الداخلي الكبير الذي يُوجد عادة في الوكالات[٢]، وتم تسجيل هذا المبنى في فهرست الآثار الإسلامية على أنه ربع أيضًا، وإذا كان الرأي الأول الخاصُّ بأن هذا المبنى وكالة لم تؤيده الأدلة التاريخية حتى الآن، فإن الرأي الثاني ربما يؤكده ما ذكره السخاوي من أن السلطان قايتباي عمل بكلٍّ من جانب مدرسته وتجاهها ربعًا للصوفية موطنًا ووضعًا وسبيلًا... إلى جانب الربع الذي أقامه الدوادار الكبير يشبك من مهدي ليتسع به الصوفي والفقير[٣].

والواقع أن هذا المبنى يشبه في تكوينه الطباق الشمالي الملاصق للمدخل الرئيس لمنشأة أمير كبير قرقماس[٤] حتى إن الأخير يكاد يكون نسخة منه، ومن ثم يمكن

---

(١) الربع من المسقفات الهلالية، وهو عمارة ضخمة للاستغلال، بوسطه حوش كبير، يوجد به عدة طباق متجاورة وعلو بعضها لسكن عدد كبير من الأسرات الفقيرة بأجور شهرية زهيدة.

عبد اللطيف إبراهيم، دراسات، معجم المصطلحات الفنية، ص(س).

ويمكن القول أيضًا بأن سكنى الربع لا تقتصر على الأسرات الفقيرة فقط، فقد يكون الربع طباقًا للصوفية كما ورد في النصوص التاريخية والوثائق الخاصة بمنشآت الصحراء.

(٢) Creswell: Abrief Chronology of the Muslim Monuments of Egypt, p. 139.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٨.

(٤) يتكون هذا الطباق من جزأين مستطيلين، الجنوبي منهما خصص للسكن، وهو نفس صلب الطباق، والشمالي ترك فضاء، وقصد المعمار أن يعمله طاحونًا، ولكنه صرف النظر عنه، أما الجزء السكني فبالجهة الشمالية منه ثمانية أبواب، كل منها يؤدي إلى دركاة بها مرحاض يجاوره باب يدخل منه إلى حاصل مستطيل مغطى بقبو نصف دائري (برميلي) ويواجه باب الحاصل باب السلم الصاعد للرواق العلوي المحتوي على إيوان ذي طاقات تطل على الطريق، وبالجهة المقابلة دور قاعة تفصله عن خلوة ومرحاض.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، الملحق الوثائقي، ص١٨١.

القول بأن هذا الربع ما هو إلا طباق من جملة الطباقات التي ألحقها قايتباي بمنشأته، وبذلك يكون عددها ثلاث طباقات.

وكان يوجد في مواجهة منشأة قايتباي أيضًا من الجهة الجنوبية الشرقية بجوار الطباق والرواق المشار إليهما سابقًا معالم ورسوم ميضأة وفسقية، فالميضأة معدَّة لقضاء الحاجة، والفسقية معدة للوضوء... وعلى منافع ومرافق وحقوق يستحق منافعها أرباب الوظائف الصوفية والشيخ على ما يراه الناظر في ذلك، وهذا المكان المقابل للجامع لم تكمل عمارته وهو من جملة الوقف[1].

وقد سبق القول بأن الطباق والرواق قد تم الفراغ من بنائهما بالفعل كما يتضح ذلك من لوحات "كوست" و"ديفيد"، أما الميضأة والفسقية فلا يوجد من الأدلة التاريخية ما يبين الانتهاء من بنائهما، ورغم ذلك يمكن القول بأن دورة المياه الحالية المواجهة لمنشأة قايتباي من الجهة الجنوبية الشرقية والمجاورة لقهوة حديثة ربما كان موضعها (الطباق والرواق)، وقد كان في موضعها الميضأة والفسقية التي أشارت إليها الوثيقة، وذلك على أساس أن الوظيفة تنتج عن الأهمية المتوارثة للمكان.

ومن الجدير بالذكر أن الرحالة الألماني "بريدنباخ" قد زار منشأة السلطان قايتباي، بعد الانتهاء من بنائها بفترة قليلة، وذلك في عام (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، حيث قال "فهبطنا منحدرًا[2] حادًّا لا يخلو من خطر، ومررنا خلال عدد من

---

(١) حجة وقف قايتباي، أوقاف، ٨٨٦، ص٣٧.

(٢) ولعل هذا المنحدر الحاد هو ما أشار إليه المقريزي عند حديثه عن موضع ميدان القبق، وعبر عنه "بالثغرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها".
المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٦١، ج٢، ص١١١، مج ٣ تحقيق أيمن فؤاد، ص ٣٦٩.
ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن هذه المنطقة لا تزال تعرف هي، والمنطقة الموصلة إلى شارع =

الجبانات حتى وصلنا إلى مقابر السلاطين، فلكلِّ سلطان مسجد خاصٌ بُني في البقعة التي اختارها لنفسه، وقد أمر السلطان الحالي (قايتباي) ببناء مسجد فسيح له مآذن عالية ماهرة الزخرفة، كما أمر ببناء منازل كبيرة حوله ذات عدد كبير من الحجرات -لعله يقصد الطباقات الخاصة بالصوفية كالأديرة، وفيها يعول فقهاء الشريعة والدين الإسلامي[١].

وقام السلطان قايتباي أيضًا بعمل سور حول مجموعته المعمارية الضخمة يحتوي على عدة أبواب ما زال باقيًا منها بابان حتى الآن[٢].

ويوجد الباب الأول بالجهة الجنوبية من المنشأة، وهو معقود بعقد مدبب وتوجد في كوشتيه دائرتين خاليتين من أيَّة نقوش كتابية، ويعتقد كريزول أنه كان المدخل المؤدِّي إلى هذه المجموعة[٣].

ويتصل بهذه البوابة جدار، ربما كان يمتد ليحيط بالمجموعة التي كانت تواجه المنشأة من الجهة الجنوبية الشرقية (والتي يحتل موقعها الآن تل مرتفع وقهوة ودورة مياه حديثة) ويؤكد ذلك لوحة بسكال كوست (لوحة ٢٥).

أما الباب الثاني، فما زال موجودًا بجوار المقعد، وهو يشبه في تكوينه الباب السابق، ويتصل به جدار أيضًا، ربما كان يمتد أكثر مما هو عليه الآن حتى كان ينتهي

=

باب الوزير بالدحديرة.

(1) Wiet (G): The Mosques of Cairo (France, 1966) pp. 29. 30.

فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص٢١٦-٢١٧.

(٢) عبد الرحمن عبد التواب، قايتباي، ص١٨٧.

(3) Creswell, op. Cit. p. 14

عند الربع، ومن الطبيعي أنه كان يوجد باب ثالث يتصل به جدار أو سور يمتد من عند نهاية الربع؛ أي من الموضع الذي تشغله الآن عمارة حديثة بجوار الربع حتى يتصل وينتهي عند الجهة الأخرى من المجموعة التي كانت تواجه المنشأة من الجهة الجنوبية الشرقية[١].

مما سبق يمكن القول بأن مجموعة السلطان قايتباي كانت أشبه بضاحية ملوكية مستقلة بمنشآتها وأسوارها وبواباتها.

ويدل على ذلك ما ذكره النابلسي، فيذكر أنهم عند مغادرتهم مصر نزلوا "بمنزلة قايتباي صاحب الخيرات الحسان، وهي محلة ذات بيوت فيها جامع ومدفن للسلطان الملك قايتباي، وهو مدفن عظيم مبني بالأحجار المتينة والقبة المترتفعة الرصينة"[٢].

وممن كان لهم الفضل في عمران الصحراء أيضًا الأمير يشبك من مهدي الذي قام بإزالة القبور التي كانت موجودة فيما بين جامع آل ملك[٣]، والريدانية طولًا وعرضًا، وأقام بدلًا منها "ساباطًا يعلوه مكعبًا، وعمل مزدرعات هناك، وحفر بئرًا عظيمًا يعلوه أربع أسواق إلى غيرها من بحرة هائلة للتفرج، وحوض كبير، ثم يخرج

---

(١) حدثني الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب خبير الآثار الإسلامية، فذكر لي أنه كان يوجد بالفعل باب ثالث بنهاية الربع يجاور السبيل الذي كان موجودًا هناك، أي في نفس الموضع الذي تشغله اليوم العمارة الحديثة المجاورة للربع.

(٢) النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص٢٩٣.

(٣) جامع آل ملك الجوكندار، هذا الجامع خارج باب النصر أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك، وكمل وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأول (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، وهو من الجوامع المليحة، وكانت خطته عامرة بالمساكن وقد خربت، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣١٠.

من الساباط من باب عظيم إلى قبة عظيمة وتجاهها غيط حسن فيه أشتال كثيرة"[١].

ولم يتبقَّ من كل ذلك سوى القبة التي اختلف المؤرخون في تاريخ بنائها، فبينما يذكر السخاوي أنها تمَّت في حياة الأمير يشبك، يذكر ابن إياس أنها تمَّت بعده؛ لأن الأمير يشبك مات ولم يُتمَّ بناءها، ورسم السلطان قايتباي بإكمال عمارتها[٢].

والواقع أن النقش الكتابي برقبة القبة الذي يسجل تاريخ حجِّ السلطان قايتباي (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، يُرجِّح رأي السخاوي في أن هذه القبة تمت في حياة الأمير يشبك[٣].

ولم تقف منشآت يشبك عند هذا الحدِّ، بل أقام قبليَّ قبته "تربة عظيمة فيها شيخ وصوفية، وتجاه التربة مدرسة، ويجانبها سبيل للشرب وحوض للبهائم وبحرة

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٣-٢٧٤.
حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج١، ١٩٤٦م، (ط٢، ١٩٩٤م) ص٢٦٩.
سامي عبد الحليم إمام، الأمير يشبك من مهدي وأعماله المعمارية بمدينة القاهرة، ص٦١-٦٢، ٩٨.
ابن أجا، تاريخ الأمير يشبك الظاهري، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٢-٢٣.
عبد الرءوف علي يوسف، حي الظاهر والحسينية (بحث في كتاب القاهرة) ص٦٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٦٠، ١٨٩.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ، ص٢٧، ٢٧١، سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص٩٩.
ويضيف سامي عبد الحليم إمام، فيقول: إن ابن إياس ربما أراد أن يشعرنا بأن السلطان قايتباي رغب في أن يتمم ما بقي من زخارف القبة الكتابية، وبالتالي يدخل على القبة بعض التحسينات من زخرفة وغيرها، ومما يؤيد ذلك وجود كتابات على واجهة القبة الرئيسية تشير إلى أن هذه القبة أنشئت على أمر السلطان قايتباي، هذا إلى جانب وجود دوائر كتابية مثل دوائر الرنوك باسمه على الواجهة المذكورة. سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص١٠٠.

عظيمة يجري الماء منها إلى مزدرعات"[١].

ويستفاد من هذا النص أن تربة الأمير يشبك كانت -كغيرها من ترب صحراء المماليك، تؤدي وظيفة الخانقاة، فكان بها شيخ وصوفية، ومن ثم ألحق بها مدرسة وسبيل وحوض للسبيل، وذلك لخدمة أرباب الوظائف المقيمين بها أو الناس المارّين والمترددين عليها.

وكانت هذه التربة تقع عند زاوية الشيخ كهنفوش بالقرب من قبة النصر وقد دفن بها الأمير يشبك (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)[٢].

وقد حدد (نيبور) في خريطته للقاهرة موقع تربة يشبك في الجانب الشرقي من قبته في الجزء الشمالي من القرافة، كما ذكر أنها محاطة بعدد من الأبنية، ويبدو أن

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٤.

(٢) السخاوي، الضوء، ج٦، ص٦٢، ج١٠، ص٢٧٤.

ابن إياس، بدائع، ج٣، ص١٧٣، ١٧٧.

هذا ويذكر سامي عبد الحليم في رسالته أن هذه التربة بنيت قبل عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، وقد اعتمد في تحديد هذا التاريخ على نص أورده ابن إياس يذكر أن السلطان قايتباي زار تربة يشبك وأقام بها في رمضان ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م.

سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص٥١.

ونضيف فنقول: إن الصيرفي ذكر أيضًا عدة زيارات قام بها السلطان قايتباي إلى تربة يشبك في ربيع الأول وذي القعدة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، وصفر وربيع الآخر (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، ومحرم (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م).

الصيرفي، أنباء الهصر، ص٢٠، ٦٨، ١٢٧، ١٤٩، ٣٢١.

ويستفاد مما أورده الصيرفي وابن إياس أن الأمير يشبك أقام تربته أولًا بمكوناتها السابقة، ثم ألحق بها قبته المؤرخة (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م).

يشبك قام ببناء مجموعته الجنائزية على الجانب الصحراوي للطريق المؤدي إلى بركة الحاج، بينما مجموعته السكنية بنيت على الجانب الأخضر -أي الزراعي- غرب الطريق[١].

كما زودنا الرحالة (Monconys) ١٦٦٥م بوصف يشتمل على بعض التفاصيل، لترتيب مجموعة يشبك، فقد أشار إلى مسجد وقصر ودكة ووكالة تسمى اليشبكية، وصهريج وحوض للدواب، كما ذكر أن المباني المختلفة التي بناها يشبك تقع على جانبي الطريق حتى تستمر رحلته إلى سيناء، وأنه كانت توجد مصطبة تشرف على المنطقة المحيطة بها[٢].

كما أشار (أوليا جلبي) إلى استراحة البشبكية (ويقصد اليشبكية)، وإلى القبة بزخارفها الجميلة الرخامية والكتابية، وأنه يوجد بالقرب منها تكية للطريقة الأحمدية بها حجرات لعدد ثلاثمائة من الفقراء، وأيضًا قاعات وأماكن لاستضافة المسافرين ومطبخ وعدة أحواض، كما أشار إلى أنها استخدمت كميدان للخيل وقذف السهام، ومن ثَمَّ عُرفت باستراحة الطوبخانة[٣].

---

(1) Abouseif: the North eastem Extension of Cairo. P. 176.

(2) Abouseif, the North, p. 178.

(3) Gelebı (E); Seyahatnamesi, Misir, sudan Habes 1672-1680.
Part 10 (Istanbul, 1938(pp. 180, 181.

أوليا جلبي، سياحتنامه مصر، ص ٣٣٥-٣٣٦، ٦٠٠ (وسوف نتناول مشاهدات هذا الرحالة التركي ونعلق على هذه الترجمة تفصيلا في القسم الثاني من الكتاب بمشيئة الله تعالى).

أما الطوبخانة فهي من التركية طوب بمعنى المدفع وخانة الفارسية الأصل بمعنى المنزل، فيكون المعنى دار صناعة المدافع أو المكان الذي تحفظ به المدافع.

أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٩م، ص١٤٤.

ويستفاد مما ذكره (أوليا جلبي) أن تربة يشبك أو خانقاته تحولت إلى تكية في العصر العثماني، ومن المعروف أنه شاع في هذا العصر تحويل الكثير من المنشآت إلى تكايا[١].

هذا وقد زار النابلسي في عام (١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م)، مجموعة الأمير يشبك ووصفها بقوله: "ولم نزل سايرين إلى أن وصلنا إلى جامع اليشبكية بالياء التحتية في أوله، نسبة إلى السلطان -الصواب الأمير- يشبك من مهدي الدوادار، فصعدنا إليه فإذا هو جامع عظيم في أحسن ترصيف وتقويم وأكمل بنيان وأجمل إتقان، وبجانبه مساكن وقصور وبيوت ودور وهناك بركة كبيرة يستخرج إليها الماء بالمدار، وفي جانبها قصر مُطل عليها بشبابيك ينطلق منها البصر في فسيح تلك الأقطار"[٢].

ولم يبقَ من مجموعة الأمير يشبك من مهدي سوى القبة التي عرفت باسم قبة العزب[٣]، وبالقبة الفداوية، وإن كانت التسمية الأخيرة هي التي التصقت بها[٤].

---

(١) ومن أمثلة ذلك تكية السيدة رقية بشارع الخليفة، وتكية المولوية (مدرسة حسن صدقة) بشارع السيوفية، وتكية القوصونية (المدرسة المهذبية) بعطفة مراد بك من شارع الحلمية وغيرها.
علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٢، ص١٤٨، ١٦٠، ١٨٧.

(٢) النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) عرفت هذه القبة بذلك الاسم، لأنه كان يسكنها بعض عساكر طائفة عزبان الذين كانوا يحرسون القلاع في العصر العثماني.
سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص٦٨.
وعندما كان يصل الوالي العثماني الجديد إلى القاهرة كان يأتي إلى قبة العزب هذه، ويقيم كل الأمراء وأعضاء الأوجاقات وأتباعهم خيامهم بجوارها، ثم يدخلون بالوالي وأتباعه إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام في احتفال وموكب كبير حتى يذهبون إلى القلعة.
عبد الوهاب بكر، الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من ق١٨م، القاهرة ١٩٨٢م، ص١٦٧، ١٦٩.

(٤) غلبت هذه التسمية على تلك القبة وعلى الحي الذي تقع فيه، وقد اختلف الباحثون بشأن =

ويذكر سامي عبد الحليم إمام أن الغرض من بناء قبة يشبك هذه، المعروفة بالفداوية (وقبته الأخرى جنوب المطرية والموجودة بكوبري القبة الآن) أن يكونا بمثابة استراحات لقضاء أوقات الفراغ، وهو بذلك يعتبر مشروعًا حيويًا جميلًا لم يسبقه في تنفيذه أحد من سلاطين أو أمراء هذه الدولة[١].

والواقع أن الأمير يشبك لم يكن أول من ابتدع هذه الفكرة في العصر المملوكي، ودليل ذلك القبة التي أقامها الأمير جاني بك الظاهري[٢] الدوادار تجاه جزيرة

=

هذه التسمية، فمنهم من ذكر أنها نسبت إلى طائفة الفداوية إحدى طوائف الشيعة الإسماعيلية، وكان كلٌ من قايتباي ويشبك على صلة كبيرة بهم، وأنشأ يشبك مساكن لهم، ومن ثم عرفت القبة باسمهم، ومنهم من ذكر أنها لم تعرف بهذا الاسم إلا بعد عام (١٢١٦هـ/ ١٨٠١م)، حيث اتخذت ثكنة لطائفة العسكر الفداوية بعد إقلاع الحملة الفرنسية عن مصر، وذلك في زمن ولاية علي باشا قلج حاكم مصر.

حسن قاسم، جامع يشبك الدوادار، القبة الفدائية، (هدى الإسلام، العدد ٢٧، لسنة ٩، ١٩٤٣م) ص٢٣٥.

حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج١، ص٢٧٢.

سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٤، ص٢٦٣-٢٦٤.

سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص١٠١-١٠٣.

وهناك رأي آخر يذكر أن هذه التسمية لم تعرف إلا في زمن علي باشا مبارك.

Abouseif: Op: Cit., pp. 181, 182.

(١) سامي عبد الحليم إمام، الأمير، ص٦٥، ٩٨.

(٢) هو الأمير جانبك الظاهري جقمق الجركسي الدوادار شاد جده، تنقل في عدة وظائف حتى أصبح مدبر المملكة وصاحب حلها وعقدها، ومات مقتولًا في (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)، ودفن بترتبه بباب القرافة.

السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٥٧-٥٨، محمد مصطفى، صفحات لم تنشر من بدائع =

الروضة في (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)، وعمل بها وليمة عظيمة حضرها السلطان وجميع أعيان الدولة والمغنين. وكثيرًا ما كان السلطان يذهب إليها[١].

بل ويمكن القول بأن أشكال هذه القباب قد عرفت أيضًا قبل العصر المملوكي بفترة طويلة[٢].

=

الزهور، ص١٢٩-١٣٠.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٢٧٧، حوادث الدهور، ج٣، ص٥٤١، ٥٦٩، ج٤، ص٧٦٦-٧٦٧.

ابن إياس، بدائع، ج٢، ص٤٠٦،

محمد مصطفى، صفحات، ص١٢٧، ١٧٥، محمد محمود الجهيني، الأمير جاني بك نائب جده وآثاره المعمارية بالقاهرة، مجلة آداب قنا، جامعة جنوب الوادي، العدد ٤ (١٩٩٥م)، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) ومن أمثلة ذلك قبة الهواء التي كانت في موضع القلعة قبل بنائها، وأول من بناها حاتم بن هرثمه (١٩٥هـ/ ٨١٠م)، ومات بها عيسى بن منصور أمير مصر بعد عزله (٢٣٣هـ/ ٨٤٧م)، وحبس فيها الحارث بن مسكين على يد المأمون، عندما قدم إلى مصر (٢١٧هـ/ ٨٣٢م)، ولما بنى ابن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء كان كثيرًا ما يقيم فيها فإنها كانت تشرف على قصره، واعتنى بها خمارويه من بعده وجعل لها الستور الجليلة والفرش العظيمة في كل فصل ما يناسبه، ثم خربت بعد زوال الدولة الطولونية وبني موضعها مقبرة وبني فيها عدة مساجد.

الكندي، الولاة والقضاة –ص١٤٧،

المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٠٢، مج ٢، ص ٥٨٤.

وأيضًا قبة الهواء الفاطمية وكانت من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين وهي "مستشرف بهيج فيما بين التاج والخمس وجوه يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم، ولهذه القبة فرش معدة في الشتاء والصيف، ويركب إليها الخليفة في أيام الركوبات التي هي يوم السبت والثلاثاء"

=

وقام بعض أمراء قايتباي أيضًا بتعمير ترب لهم بالصحراء، ومنهم الأمير قجماس[١] الإسحاقي الظاهري جقمق، وأبو بكر بن[٢] مزهر، وأقبردي من علي باي[٣].

=

المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٨٧،

(١) الأمير قجماس الإسحاقي، نشأ في خدمة أستاذه جقمق نائب الشام، تنقل في عدة وظائف منها الخازندارية وإمرة عشرة ونائب الإسكندرية وأمير أخور كبير ونائب الشام، وتوفي هناك (٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م)، ودفن بها، وكانت تربته هذه بالصحراء بالقرب من تربة قانم التاجر، السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢١٣.

وبما أن تربة قانم كانت تقع إلى الجنوب من تربة أبي زكريا يحيى رئيس المجبرين والجرائحية تجاه تربة السلطان إينال التي لا تزال باقية لليوم.

عبد اللطيف إبراهيم، الوثائق في خدمة الآثار، ص٤٤٩.

فإن هذا يدل على أن تربة قجماس الإسحاقي أيضًا كانت قرب تربة قانم في مواجهة تربة السلطان إينال، ونضيف فنقول: إن هذه التربة كانت كغيرها من ترب أمراء المماليك وسلاطينهم تؤدي وظيفة الخانقاة، فقد كان بها تصوف ووظائف كما أشار السخاوي.

السخاوي، الضوء، ج٦، ص٢١٣.

(٢) عن ترجمته انظر ص ٢٠١ حاشية ٣ من هذا الفصل.

ولم يستطع عاصم رزق في رسالته للماجستير تحديد موضع تربة أبي بكر مزهر التي دفن بها في الصحراء.

عاصم محمد رزق، مسجد أبي بكر مزهر بالقاهرة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٧١م، ص٢١.

ويمكن القول أنها كانت بجوار منشأة السلطان قايتباي التي لا تزال موجودة لليوم في صحراء المماليك، وذلك من الجهة البحرية كما أشارت إلى ذلك حجة وقف السلطان، إلا أن هذه التربة قد اندثرت كغيرها من ترب أمراء المماليك بالصحراء.

حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١٢، ٣٧.

(٣) الأمير أقبردي من علي باي أمير دوادار كبير بحلب وكان من مماليك قايتباي ورقي في أيامه

=

و-عمران الصحراء في عهد خلفاء السلطان قايتباي (٩٠١-٩٢٣هـ/ ١٤٩٥-١٥١٧م):

يذكر ابن إياس أن السلطان الظاهر قانصوه[١] أبو سعيد (٩٠٤-٩٠٥هـ/ ١٤٩٨-١٤٩٩م) أنشأ "تربة بالصحراء، وضيَّق بها الطريق على المار من هناك، وأعمى ترب الناس التي بجواره"[٢]. (شكل ٤٢)، (لوحة ٨٠).

=

إلى منتهى الرياسة وولي عدة وظائف سنية منها إمرة سلاح والدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية وكاشف الكشاف وصار مدبر المملكة وصاحب الحل والعقد بالديار المصرية، توفي بحلب ثم نقلت جثته إلى القاهرة في صفر (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء.

ابن إياس، بدائع، ج٣، ص٤٢١-٤٢٢.

(١) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه، جركسي الجنس، اشتراه الأمير قانصوه الألفي مع جملة المماليك الكتابية، وصار فيما بعد من جملة المماليك الجمداريه، وتولى الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية في عهد الناصر محمد بن قايتباي، ثم تسلطن في ربيع الأول (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) وتلقب بالملك الظاهر أبي سعيد، وكانت مدة سلطنته سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يومًا.

ابن إياس، بدائع، ج٣، ص٤٠٤-٤٠٥، ٤٣٦.

(٢) ابن إياس، بدائع، ص٤٣٧.

ويبدو أن ازدحام تلك المنطقة بالترب في أواخر (ق٩هـ/ ١٥م)، وأوائل (ق١٠هـ/ ١٦م)، هو الذي دفع ابن إياس إلى أن يوجه النقد إلى السلطان قانصوه أبي سعيد، بسبب بناء تربته بهذا الموضع، ومن المعروف أنه يوجد بجوار وأمام تربة إينال وقرقماس الباقيتين لليوم ترب كثيرة أشارت إليها الوثائق، وجميعها تعتبر بالقرب من تربة قانصوه أبي سعيد التي لم يتبقَّ منها سوى القبة التي تقف على رأس الدرب السلطاني، ومن ثم ذكر ابن إياس أنه ضيَّق بها الطريق على المار من هناك.

ومهما يكن من أمر فإن هذه التربة لم يتبق منها سوى القبة المشار إليها، وبقايا طرف رباط مما يدل على أنه كان ملحقًا بها ملاحق أخرى، وتحتوي هذه القبة على النقش الإنشائي الخاص

=

وقام السلطان الملك العادل طومان باي[١] بإنشاء تربة بالريدانية، بالقرب من المطعم السلطاني دفن بها في ذي القعدة (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)، ولم يتبقَّ منها سوى القبة التي يشار إليها دائمًا على أنها قبة منفردة أو مستقلة- أي غير ملحقة ببنايات أخرى[٢] (شكل ٤٣)، (لوحة ٨١)، والواقع أن هذه القبة لم تكن منفردة أو مستقلة، ودليل ذلك ما ذكره ابن إياس، من أن السلطان الغوري عندما قام بزيارة تربة

=

بها، والمؤرخ بعام (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م).

Berchem Op. Cit, pp. 555-556.

(١) السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي، أصله جركسي الجنس، اشتراه قانصوه اليحياوي إلى قايتباي، فأقام في الطبقة مدة طويلة ثم أعتقه وأخرج له خيلًا وقماشًا، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارًا، ثم بقي خازندار كيس، ثم أمير عشرة، ثم نائب الإسكندرية، ثم أمير طبلخاناة، ودوادار ثان، ثم مقدم ألف دوادار كبير، ثم أمير سلاح دوادار كبير ووزير وأستادار، وكاشف الكشاف في دولة جمبلاط وولي السلطنة لمدة مائة يوم، هذا خلاف ثلاثة أشهر وعشرة أيام حين تغلب بدمشق ،ابن إياس، بدائع، ج٣، ص٤٦٣-٤٦٤، ٤٧٧.

(٢) لا تزال هذه القبة باقية لليوم داخل مبنى قيادة المنطقة المركزية العسكرية (تجاه مستشفى الأمراض النفسية والعصبية). بالعباسية، على يسار الذاهب إلى مدينة نصر ومصر الجديدة، وتحتوي هذه القبة على النقش الإنشائي الخاص بها، والمؤرخ بشهر رمضان (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م).

Berchem Op. Cit, p. 563.

ومما هو جدير بالذكر أن (أوليا جلبي)، على الرغم من أنه ذكر هذا التاريخ السابق، وهو (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م، إلا أنه نسبها للسلطان الأشرف طومان باي، آخر سلاطين المماليك، والذي شنق على باب زويله، كما ذكر أن السلطان سليم دفنه في صندوق (تابوت) رخامي. أوليا جلبي، سياحتنا مه مصر، ص ٣٣٥، ٣٩٠، ٦٠٣-٦٠٤.

Gelebi: Op. Cit, p. 184.

العادل وزار قبره وقرأ له الفاتحة، رسم للصوفية بمائة دينار[١]، ومن ثَمَّ فإن هذا النص يدل على أنها كانت كغيرها من ترب سلاطين وأمراء المماليك التي كان يوجد بها حضور وتصوف أي -إنها قامت بوظيفة الخانقاه- ومن ناحية أخرى أشار الرحالة (أوليا جلبي) إلى وجود مسجد وبه قبة وعدد من الأبنية الأخرى كالسبيل والساقية والمطبخ والتكية والزاوية ومأذنة وعدد من القاعات والحجرات الخاصَّة بالسكن أو الاستخدام التجاري[٢]، وأشار البكري إلى جامع الملك العادل عند حديثه عن لعبة القبق في العصر العثماني[٣] كما كان يوجد خان يُسمى خان العادل يجتمع به المسافرون من قوافل الحج والتجارة، وكان هذا الخان معروفًا في العصر العثماني، وربما كان هو نفس المبنى الكبير الذي أشار إليه (أوليا جلبي) على أنه وكالة بجوار المصطبة استخدمت لتجارة التوابل وجمع الضرائب المرتبطة بها، وتحتوي على ٢٠٠ حجرة في عدة طوابق وتبدو من بعيد كالقلعة[٤]، وقد أشارت خريطة وصف مصر إلى خانات كثيرة جدًّا جنوب قبة العادل[٥] أمام وقرب قبة يشبك، ويبدو أن هذه الأبنية بُنيت على جانبي الطريق، ويشغل موقعها اليوم مستشفى العباسية الكبرى.

وطبقًا لما جاء في وصف مصر، فإن قرافة القبة كانت تضم مقبرة العادل وعددًا

---

(١) ابن إياس، بدائع، ج٤، ص١٦٩.

(٢) Gelebi: Op. Cit, p. 184.

(٣) البكري، قطف الأزهار، مخطوط، ورقة ١٣٩.

(٤) Abouseif: Op. Cit, pp. 178-184.

(٥) خريطة ضواحي القاهرة رسمت في عام ١٨٠٩م، وأعيد رسمها في ١٩١٠م.

Environs Du Kaire.

Description DE I'Egypt – etat moderne, second edition

Tome Premier (paris, 1822). Pl. 15.

من الأضرحة الغنيَّة جدًّا، وكانت متصلة بقرافة قايتباي، وقد اعتبرها (كلوت بك) واحدة من القرافات الثلاث الكبيرة في القاهرة هي والقرافة الجنوبية وقرافة قايتباي[١].

وفي القرن ١٩م قام الرحالة أوين جونز (Owen Jones) ١٨٠٩-١٨٧٤م برسم قبة العادل طومان باي، وبجوارها مئذنة تتبع الطراز المملوكي[٢].

ووصف علي مبارك جامع العادلي في زمنه فقال: "هذا الجامع بالعباسية من ضواحي القاهرة، أنشأه السلطان طومان باي مدرسة ذات إيوانين أحدهما عليه قبة شاهقة، وبها منبر من الخشب وعشرة شبابيك، وعلى قبلتها نقوش من ضمنها مولانا السلطان الملك المالك العادل أبو النصر طومان باي، وكان الفراغ في شهر رمضان (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)، وقد صار تجديده الآن من طرف الأوقاف، وهو عامر مقام بعض الشعائر"[٣].

مما سبق يمكن القول أن تربة السلطان طومان باي[٤] بمكوناتها المتعددة بنيت

---

(١) جومار، وصف، ص ٢٦٦؛ Abouseif: Op, Cit,: p. 184.

ومما يؤكد ذلك الخرائط التي رسمت لمدينة القاهرة وظواهرها في ق١٩م، فإن نظرة واحدة لها تبين أن الصحراء الممتدة شمال القلعة حتى تربة العادل كانت منطقة واحدة متصلة ببعضها مما يتفق مع ما جاء في المصادر المملوكية والوثائق الخاصة بمنشآت الصحراء.

Descirption De L'Egypt-pl. 26.

Plan de la ville du caire et de ses Environs en 1868.

(2) Abouseif: Topography and Architecture of the North eastern Suburb of Cairo in the Circassian Period (Cairo, 1980). plate,I.

(٣) علي مبارك، الخطط، ج٥، ص١٠٦.

(٤) ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أنه عثر بجوار قبة العادل طومان باي بتاريخ =

مباشرة على طريق القوافل بالقرب من المصطبة على الجانب الصحراوي للطريق حيث وصلت القرافة –أي صحراء المماليك– وامتدَّت إلى الشمال أكثر مما هي عليه الآن.

كذلك قام بعض أمراء الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) ببناء ترب لهم في الصحراء، ومنهم الأمير أزرمك أحد مقدمي الألوف في عهد الأشرف قانصوه الغوري، فقد أنشأ تربة بالصحراء، تم الفراغ من بنائها(٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)[١]. (شكل ٤٥)، (لوحتا ٧٨-٧٩).

وقام الأمير قرقماس[٢] ببناء مجموعة معمارية ضخمة بالصحراء بجوار تربة

=

١٤/ ٤/ ١٩٦٨م على خمسة دنانير ذهبية باسم السلطان الغوري، ودينار ذهب باسم الأشرف طومان باي وتم تسجيلهم بالمتحف تحت رقم (٢٤٠٩٣، ٢٤٠٩٤) (خـ٢ع١٢٨).

(١) لم يتبق من هذه التربة سوى القبة فقط، ويبدو من موضعها وسط بعض الأحواش المستغلة حاليًا في السكن، أنها لم تكن قبة منفردة، أو مستقلة كما يذكر بعض العلماء، بل كانت تربة مثل غيرها من ترب أمراء المماليك بالصحراء، كما أن النقش الإنشائي يذكر أيضًا أنها تربة.

Berchem: OP. Cit. p. 583.

وعن القول بأن هذه القبة مستقلة انظر:

عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، ص ١١٤.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير كبير قرقماس وملحقاتها، ص١٩-٢١.

(٢) هو الأمير قرقماس من ولي الدين أتابك العساكر بالديار المصرية، كان أصله من مماليك قايتباي، فهو من معاتيقه، وولي من الوظائف إمرة الأخورية الثانية، ثم بقي مقدم ألف، ثم بقي رأس نوبة النوب، وقرر في نيابة حلب، وقرره الغوري في إمرة سلاح، ثم بقي أتابك العساكر، فأقام بها ست سنين وشهرين إلا سبعة أيام فيما بين رجب (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) حتى وفاته في رمضان (٩١٦هـ/ ١٥١٠م).

=

السلطان إينال، وقد بنيت هذه المجموعة على عدة مراحل، فبنيت القبة أولًا، وتم الفراغ من بنائها في ذي القعدة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)[١].

ثم كانت المرحلة الثانية بناء القصر والمدفن، وكان ذلك عقب الانتهاء من بناء القبة في ذي القعدة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، واستمرَّ البناء فيهما حتى رجب (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)[٢].

وتتمثل المرحلة الثالثة في بناء المدرسة وملحقاتها المتمثلة في السبيل ومكتب السبيل ومربع مدّ السماط[٣]، أما المرحلة الأخيرة فتتمثل في بناء طباقين بملحقاتهما: الطباق الكبير المندرس[٤]، والطباق الصغير الذي يلتصق طرفه الجنوبي بالناصية

=

ابن إياس، بدائع، ج٤، ص١٩٧-١٩٨.

(١) Berchem: OP. Cit. p. 592.

ويذكر نجيب أن بناء القبة أولًا كان انعكاسًا لرغبة قرقماس، حيث إنه قد تخوف من أن يفاجئه الموت، مثلما فاجأ أولاده من قبل، ولم يكن قد جهز لنفسه مدفنًا أو قبة من ماله الخاص فدفنهم بقبة الأمير قانم طاز.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٨٩

(٢) نلاحظ أن المعمار لم يدمج القصر مباشرة بالقبة، بل جعل بينهما مدفنًا مستطيل الشكل بتخوم أرضه أربع فَساقٍ لدفن أقارب قرقماس وأولادهم وذريتهم، وجعل بالجهة الشمالية منه مبيتًا لخادم القبة. والمدفن يجاوره من جهته الغربية مرحاض، وأسفل كل من المبيت ومرحاضه حاصل يدخل له من باب بالحوش الخلفي، كما أنه أقام أسفل القصر رواقًا بتخومه فساقٍ للدفن أيضًا تخصص لعتقاء قرقماس ومن يلوذ به وبالناظر بعده.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٩٠-٩٢.

(٣) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٩٣، ٩٤.

(٤) يذكر نجيب أن هذا الطباق كان يقع إلى الجنوب الشرقي من المدرسة يفصلها عنه طريق تشرف عليه واجهتها.

=

الشمالية للمدرسة ملتفًا حول قاعدة المأذنة[١].

وبانتهاء المعمار من بناء هذين الطباقين اكتملت المنشأة بالشكل الذي وضعه لها في تصميمه الذي تخيله لها، وهذا الاكتمال لم يكن في رجب (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)، بل كان في رجب من السنة التالية؛ أي (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[٢]. (شكل ٤٦) لوحات ١٩-٢٠، ٢٩-٣١، ٨٨.

=

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص١٠٠.

والواقع أن هذا الطباق والربع الذي كان بجواره،لم يكونا أمام المدرسة من الجهة الجنوبية الشرقية، بل كانا إلى الخلف منها، فقد نصت الوثيقة عند ذكر حدود كل من الطباق والربع المندرس على أن الحد الغربي ينتهي إلى زقاق فاصل بينهما وبين تربة قجاجق الدوادار التي كانت بجوار تربة القاضي عبد الباسط التي كانت تقع في الجهة الشمالية الغربية من منشأة قرقماس حاليًا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الجهة المقابلة لمنشأة قرقماس من الناحية الجنوبية الشرقية كانت مملوءة بالترب الكثيرة فلو كان موضع الطباق والربع في هذا المكان لأشارت الوثيقة إلى اسم تربه من هذه الترب عند ذكر حدود الطباق والربع، وهذا مالم يحدث بل أشارت إلى ترب أخرى في الجهة الشمالية الغربية من منشأة قرقماس، ومنها تربة قجاجق الدوادار التي كانت بجوار تربة القاضي عبد الباسط كما سبق القول.

انظر، محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص١٠، الملحق الوثائقي، ص٣١-٣٣، ١٨٠.

(١) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص١٠٠.

(٢) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص١٠٤.

ويُضيف نجيب فيقول: إن التاريخ الموجود على عضادتي المدخل، وهو رجب (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)، إنما يقصد به الانتهاء من كتلة المدرسة والسبيل والكتاب ومربع مد السماط فقط، ولا يقصد به الانتهاء من بناء كتلتي الطباقين، واستدل على ذلك بوجود فواصل بنائية واضحة رغم محاولات المعمار تلافي ظهورها، ومن ثم رجَّح أن يكون بناء الطباقين قد استغرق ما يقرب من سنة، فكان الانتهاء من بنائها في رجب (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م). محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٣٩-٣٩٤.

هذا وقد اختلف المؤرخون والآثاريون فيما بينهم، بشأن الاسم الذي تسمى به هذه المجموعة، فمنهم من ذكر أنها مسجد[١]، ومنهم من ذكر أنها مدرسة[٢] والواقع أن نقش الإنشاء يشير ضمنًا إلى أنها مسجد، بينما يشير النص الوثائقي إلى أنها مدرسة استخدمت كمسجد جامع، كما أن وجود الطباقات وإشارات كتاب الوقف إلى الصوفية يشير إلى أنها قامت بمهمة الخانقاة[٣].

والواقع أنه باستقراء ما جاء في حجة الوقف، وُجِد أنه ورد بها لفظ التربة نحو خمس مرات: المرة الأولى عند الحديث عن قراء التربة، وهم ثلاثة أنفار من حملة كتاب الله العزيز وعليهم "أن يقرءوا مجتمعين ما تيسر قراءته من القرآن العظيم صبيحة كل يوم بتربة الواقف الكاينة بالصحراء بالقرب من المدرسة البرقوقية"[٤].

ويدل هذا النص على أن لفظ التربة الوارد هنا لا يقصد به المدفن ذو القبة الذي دفن فيه قرقماس؛ لأنه ورد بالوثيقة نفسها ما يدل على ذلك، فقد جاء بها وصف القبة، وصفًا مستقلًا خاصًا بها، كما جاء بها ذكر قبر الواقف أو ضريحه أسفل تلك

---

(١) علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٥، ص١٧٧.

Comite de conservation des Monuments de l'art Arabe (exercice 1914-le caire, 1916) p. 23.

(2) Berchem: Op. Cit P.592

Creswell :Abrief Chronology.

Briggs (M): Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, (Oxford, 1924), p, 129.

Hautecoeur (L) et wiet (G): Les Mosquees du Caire (Paris, 1932) P. 310 – 312.

(٣) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير كبير قرقماس، ص١٢٣-١٢٥.

(٤) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير كبير قرقماس ، الملحق الوثائقي، ص١٤.

القبة، وما يلزمه من زيت يستصبح به على ضريح الواقف أو الريحان والبقولات الرطبة التي توضع فوقه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نصَّت الوثيقة على أن الفساقي الموجودة بتخوم أرض القبة والمدفن المجاور لها ومربع مد السماط خُصصت لدفن الواقف وذريته وعتقائه ومن يلوذ به[١].

والمرة الثانية عند الحديث عن بواب التربة الذي يتولى كنسها وتنظيفها وما يتقاضاه نظير ذلك[٢].

والمرة الثالثة عند الحديث عن صرف أربعمائة درهم في كل شهر كي يشتري بها "خبز قرصة يفرق في ليالي الجمع بالتربة حسابًا عن كل جمعة مائة درهم"[٣].

والمرة الرابعة عند الحديث عن صرف ستة آلاف درهم نصفها ثلاثة آلاف درهم في العشر الأُول من ذي الحجة من كلِّ سنة، وذلك ثمن أضحية يضحى بها ويفرق على أرباب الوظائف بالتربة، كلُّ ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده[٤].

والمرة الخامسة عند الحديث عن الرجل السقا الذي "يتولى الكنس والرش تجاه

---

(١) محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير كبير قرقماس ، الملحق الوثائقي، ص١٥، ٢١-٢٢، ٣٥.

(٢) محمد مصطفى نجيب، مدرسة، الملحق الوثائقي، ص١٦.

(٣) محمد مصطفى نجيب، مدرسة، الملحق الوثائقي، ص٥١.

ومن الطبيعي أن هذا الخبز كان يفرق على أرباب الوظائف بالتربة، وليس على الأشخاص المدفونين بها.

(٤) محمد مصطفى نجيب، مدرسة، الملحق الوثائقي، ص٥٤.

المدرسة والتربة"[١].

ويستفاد من كل هذه النصوص، أنه كان يقصد بلفظ التربة معنى آخر غير المدفن أو القبة أو القبر، وبما أن المكونات المعمارية التي أشارت إليها الوثيقة من الطباقات والخلاوى والحواصل والخرستانات وغير ذلك من المنافع والمرافق والحقوق، هي نفسها التي وجدت من قبل في ترب سلاطين وأمراء المماليك، كي ينتفع بها أرباب الوظائف بهذه الترب -أي بهذه الخانقاوات- وبناء على ذلك يمكن القول بأن منشأة قرقماس كانت تربة أيضًا قامت بوظيفة الخانقاة وأن المدرسة الملحقة بها كانت مسجدًا جامعًا لخدمة أرباب الوظائف وغيرهم من المترددين أو المارين على هذا المكان.

وقام الأمير طراباي[٢] الشريفي ببناء منشآته بالجزء الجنوبي من الصحراء بباب الوزير[٣] وتتكون من قبة عظيمة ملحق بها سبيل يعلوه مسكن له يقابله كتاب فوق

---

(١) محمد مصطفى نجيب، مدرسة، الملحق الوثائقي، ص٥٢-٥٣.

(٢) هو الأمير طراباي الشريفي رأس نوبة النوب، كان أصله من مماليك قايتباي، فهو من معاتيقه، وولي من الوظائف السنية الدوادارية الثانية، ثم بقي رأس نوبة النوب في دولة الأشرف جان بلاط، توفي يوم الجمعة سادس المحرم (٩١٧هـ/ ١٥١١م).
ابن إياس، بدائع، ج٤، ص١٠٨.

(٣) باب الوزير أحد أبواب القاهرة بالسور الشرقي أنشأه صلاح الدين في المسافة الواقعة بين الباب المحروق وبين قلعة الجبل، وقد فتحه الوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروين المعروف بوزير بغداد، وقت أن كان وزيرًا للملك المنصور أبي بكر بن محمد بن قلاوون (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، ولذلك عُرف من ذلك الحين باسم باب الوزير، ويُنسب إليه شارع باب الوزير وقرافة باب الوزير، وقد جدد هذا الباب الأمير طراباي الشريفي، وأنشأ بجواره القبة والسبيل (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م).
تعليقات محمد رمزي في النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٠، حاشية ٢.

=

حجرة معقودة (شكل ٤٤)، ويفصل بين كتلة السبيل والحجرة التي أسفل الكتاب بوابة الوزير التي جددها هذا الأمير، وتمّت هذه الأعمال كلها في عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)[١].

وهكذا استطاع سلاطين وأمراء المماليك أن يغيروا وجه الصحراء الممتدة شمال القلعة حتى الريدانية، فازدانت بالعمائر الحسنة[٢]، ومن ثم أصبحت الصحراء مدينة عظيمة[٣] بُنيت بها "تربًا وزوايا ومساجد ومعابد لا تحصى والذي بها الآن (أي زمن السخاوي) سبع خطب، وهذا لا يكون إلا في بلد كبير"[٤].

وقد وصف ليون الإفريقي ما شاهده من قباب السلاطين في قرافة صحراء المماليك بقوله: "وفي خارج الحاضرة المسورة أضرحة السلاطين وهي جميلة فخمة متقنة الصنع، شامخة البنيان ذات قباب كبيرة..."[٥]

=

عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من آثار (القاهرة ١٩٧٠م) ص١٩-٢٠؛ موسوعة مدينة القاهرة، ص٢٦.

(١) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، ص١١٤.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة، ص١٩، ٢١.

حسين مصطفى رمضان، قبة وسبيل طراباي الشريفي بباب الوزير بالقاهرة، مجلة التاريخ والمستقبل، مج ٢، العدد ٢، يصدرها قسم التاريخ بآداب المنيا (١٩٩٢م).

وعن النقش الإنشائي لهذه القبة انظر: Berchem: Op Cit. p. 580

(٢) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بولس راويس، بباريس ١٨٩٤م، ص٢٩.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٨٨.

(٤) السخاوي، تحفة الأحباب، ص٥٢.

(٥) ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ج٢، ص٢١٢.

رابعًا: تحليل مدلول لفظ التربة في العصر المملوكي[١]

يتبين لنا من خلال العرض السابق أن بعض المنشآت التي أقيمت بالقرافة الجنوبية، ومعظم المنشآت التي أقيمت بالصحراء قد سميت بالترب، فهل هذا يعني أن هذه المنشآت مجرد مقابر[٢] فقط، أم أن لها معنى آخر أعمَّ وأشمل؟

والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي الاعتماد على ما يلي:

١-المصادر التاريخية التي تناولت الحديث عن هذه الترب.

٢-النقوش الإنشائية المسجلة على بعض الترب الباقية حتى اليوم.

٣-الوثائق الخاصة بهذه الترب وبمنشآت الصحراء.

---

(١) مما له دلالته في هذا الصدد أنه توجد رسالة دكتوراة موضوعها "الترب المملوكية بمدينة القاهرة" للطالب/ هاني محمد رضا حمزة تحت إشراف أ.د. محمد مصطفى نجيب (كلية الآثار، جامعة القاهرة ٢٠٠٣م)، ولم تضف هذه الرسالة أي جديد إلى ما انتهينا إليه في رسالتنا للماجستير عام ١٩٨٧م فجميع الآثار التي تناولها كترب مستقلة أو ترب ملحقة، سبق وأن أثبتنا أنها ترب وليس قباب فضلا عن دراسة كل ما يتعلق بالقباب الباقية معماريا وفنيا ولا أدري كيف سجل مثل هذا الموضوع أصلا كرسالة علمية، وكل ما فعله الطالب المذكور هو أنه ضمن رسالته الدراسة الوصفية للترب فهل الوصف يمثل إضافة علمية وابتكار في رسالة دكتوراة علماً بأن هذا الوصف قمنا بحذفه من رسالتنا للماجستير نظرًا لضخامتها وسوف نقوم بنشره كاملا في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله مع دراسة نقدية شاملة للرسائل التي قامت بالاعتداء على رسالتنا للماجستير وهو ما نوهنا إليه في مقدمة هذا الكتاب.

(٢) سبق القول أن لفظ التربة يقصد به المقبرة أو المدفن ذو القبة.
انظر ص١٩ من الفصل الأول.

١-المصادر التاريخية:

أطلقت المصادر التاريخية على معظم منشآت القرافة والصحراء لفظ التربة إلا أنها لم تكن تعني بهذا اللفظ المقبرة فقط؛ لأنها ذكرت بعض هذه الترب على أنها خانقاوات لها شيخ وحضور لوظيفة التصوف، مثل بكتمر الساقي، وطغاي تمر النجمي، وخوند طغاي[١]، والناصر فرج بن برقوق[٢]، ويشبك من مهدي، وقجماس الإسحاقي، والعادل طومان باي[٣]، وبعضها ألحق به حوض ماء للسبيل يعلوه مسجد مثل تربة قراسنقر[٤]، وبعضها عملت لها منارة لا نظير لها في هيئتها مثل تربة مسعود بن خطير[٥]، وبعضها جددت بها الخطبة، وأقيمت الجمعة، مثل تربة طشتمر حمص أخضر، وتربة جوشن، وتربة الظاهر برقوق[٦] وتربة الأشرف برسباي[٧].

مما سبق نرى أن لفظ التربة الذي ورد في المصادر التاريخية لم يكن يقصد به المقبرة فقط، وإنما أطلقه المؤرخون على المبنى الذي يحتوي على أكثر من وحدة معمارية من بينها المقبرة أو المدفن ذو القبة.

---

(١) انظر ص ١٣٥-١٣٦، ١٥١-١٥٣، ٢٧٣-٢٧٤ من الكتاب.

(٢) انظر ص ١٧٥-١٧٦، ٢٧٤-٢٧٥ من الكتاب.

(٣) انظر ص ٢١٢-٢١٣، ٢١٨-٢٢٠-٢٤١ من الكتاب.

(٤) انظر ص ١٤٨ من الكتاب.

(٥) انظر ص ١٥٤-١٥٥ من الكتاب.

(٦) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٤٥.
العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢١٩-٢٢٠.
السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٧) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٢٧٦.

٢-النقوش الإنشائية:

لم يبقَ من الترب الكثيرة المنتشرة بالقرافة والصحراء، سوى عدد قليل منها يحتوي على النقش الإنشائي الخاصّ به، وقد ورد هذا النقش في غالبية الترب بصيغة "أمر بإنشاء هذه التربة المباركة..."[١] يليها الألقاب[٢] الفخرية والوظيفية لصاحب التربة[٣] أي نفس العبارات

---

(١) ومما يجدر ذكره هنا أيضًا أنه ورد بعد هذه العبارة في بعض الترب القليلة عبارات طلب الرحمة والمغفرة للمتوفى، أي نفس العبارات التي ترد عادة على شواهد القبور أو التراكيب الرخامية أو الخشبية التي تعلو قبر المتوفى، مما يدل على أن هذه التربة كانت مقبرة فقط، ومن أمثلة ذلك تربة خوند طولبيه بالصحراء (٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)، وقد وردت بها عبارة "تغمدها الله برحمته" وكذلك تربة أبو الخير الصوفي التي اندثرت، وكانت تؤرخ بعام (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) وقد وردت بها عبارة "العبد الفقير إلى الله تعالى راجي رحمة ربه ورضوانه ومغفرته وكرمه".
عن هذه النقوش انظر:

Mehren: Op. Cit. Idel. (1869) p. 63-66.

Berchem: Op. Cit. premiere partie –p. 277. 536.

(٢) لم يكن اللقب يوضع في مكانه من سلسلة الألقاب اعتباطًا بل اصطلح الكُتَّاب في عصر المماليك على أن يُوضع اللقب في مكان مخصوص، ولذلك ربما اختلف مدلول اللقب الواحد باختلاف موضعه، وقد جرى العُرف على أن تفتح سلسلة الألقاب باللقب الأصلي، ويليه الألقاب المفردة، ثم الألقاب المركبة، ثم الاسم، ثم ألقاب النسبة بأنواعها، وألقاب الوظائف التي يشغلها صاحب الألقاب، ثم يلي ذلك كله الدعاء.
حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، (القاهرة ١٩٧٨م) ص١٠٨.

(٣) ومن أمثلة ذلك تربة كل تنكز بغا أمير مجلس الأحكام، وتربة طيبغا الطويل، والناصر فرج بن برقوق، وبرسباي البجاسي، وأزرمك.
انظر هذه النقوش في:

Mehren: Op. Cit. p. 58. 62-65.

=

والألقاب التي ترد غالبًا على النقوش الإنشائية الخاصة بالمنشآت الأخرى من مساجد ومدارس وخانقاوات وأسبلة وغيرها؛ مما يدل على أن التربة كيان معماري مستقل بذاته كهذه المنشآت ولا يُقصد به المقبرة أو المدفن ذو القبة فقط.

ويؤكد ذلك أن بعض هذه الترب تحتوي على مدافن ذات قباب تحتوي هي الأخرى على النقش الإنشائي الخاصِّ بها بصيغة "أمر بإنشاء هذه القبة المباركة" أو "وكان الفراغ من هذه القبة المباركة"[١]

وهذا يدل على أنه لو كان المقصود بلفظ التربة المقبرة أو المدفن ذا القبة فقط لاقتصر النقش على أحد اللفظين ما دام المعنى واحدًا، ويؤدي نفس الغرض، ولكن ورود لفظ التربة على المدخل الرئيسي بالواجهة الرئيسية للمنشأة يدل على أن هذا اللفظ غير ذلك، وأنه يقصد به المنشأة كلها التي تحتوي فيما تحتوي من مكونات معمارية على القبة المدفن، تمامًا مثل المساجد والمدارس والخانقاوات التي تحتوي على مدافن ذات قباب أيضًا، ولكل منها النقش الإنشائي الخاصُّ به.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن البقايا المعمارية لهذه الترب تؤكد أن المدفن ذا القبة جزء من التربة وليس التربة كلها، ويتضح ذلك من بقايا تربة الأمير تنكزبغا التي تتكون من صحن أوسط مكشوف يتقدمه إيوان صغير في الجانب الجنوبي الشرقي يتوسط صدره المحراب، ويتقدم هذا المحراب مباشرة قبة مفتوحة

=

Berchem: Op. Cit. premiere partie, p. 273-275; second partie p. 409, 583.

(١) Mehren: Op. Cit p. 65.,berchem' Op, Cit, Premiere partie p. 274.

الجوانب الأربعة[١]، ويحتوي الجانب الشمالي الغربي على المدخل الرئيس للتربة وعلى يمينه المئذنة، ويوجد بهذا الجانب أيضًا على يسار المدخل من الداخل عدد خمسة خلاوى، وربما كان يوجد مثلها في الجانبين الآخرين الغربي والشمالي، ويتضح ذلك من خلال البقايا المعمارية الموجودة في الجانب الجنوبي الغربي.

وبما أن مكونات هذه التربة هي نفسها المكونات التي توجد في الخانقاوات فإن هذا يدل على أن هذه التربة قامت بوظيفة الخانقاة، ويؤيد ذلك أيضًا ما ذكره ابن تغري بردي من أن شمس الدين الونائي قاضي القضاة تولى مشيخة التنكزية[٢].

وتدل البقايا المعمارية لتربة طيبغا الطويل المتمثلة في واجهتها الشمالية الغربية الضخمة الممتدة عن يمين ويسار المدخل (لوحة ٦)، على أنها لم تكن مقبرة فقط، وإنما كانت منشأة كبرى قامت أيضًا بوظيفة الخانقاة، وقد أشار إلى ذلك ابن قاضي شهبة في تاريخه عندما تحدث عن وفاة أحد الأمراء في عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، فذكر أنه دفن بالقرب من خانقاة طيبغا الطويل[٣].

وتدل البقايا المعمارية لتربة برسباي البجاسي المتمثلة في المدخل الرئيس للتربة وقبة الدفن والحوش الذي يحتوي صدره على محراب على جانبيه دخلتين مسدودتين

---

(١) يعتبر وضع هذه القبة المدفن أمام المحراب وضعًا فريدًا من نوعه، لأن الشائع أن القبة المدفن، إما أن تكون على أحد جانبي الإيوان أو مقدم المسجد أو الجامع وإما أن تشغل جانبي الإيوان أو مقدم المسجد أو الجامع في حالة وجود قبتين، وإما أن تبرز عن سمت جدار القبلة كما هو الحال في السلطان حسن ومسجد المحمودية، أما هذا الوضع فلم يتكرر حتى الآن في مثال آخر، فيما أعلم، وربما تظهر بعد ذلك أمثلة مشابهة.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، تحقيق، إبراهيم طرخان، مراجعة، محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م، ص٥٠٩.

(٣)تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٦٧٤.

الآن، وكان يتقدم جدار القبلة بائكة، ويُستدل على ذلك من وجود رجل عقد بالجدار الشمالي الشرقي من قبة الدفن، يقابله رجل عقد آخر في الجدار الشمالي الشرقي من الحوش، على أنها لم تكن مقبرة فقط، وإنما كانت منشأة كبرى.

ومما يدل أيضًا على أن القبة جزء من التربة وليست التربة كلَّها، ما جاء في نص الوقفية الواردة على أحد أجزاء الربعة الشريفة التي وقفها بكتمر الساقي على تربته بالقرافة وجعل مُستقر الربعة الشريفة "بالقبة التي بالتربة المعروفة بإنشائه... وشرط الواقف أن لا تخرج من التربة المذكورة ولا تعار ولا تخرج إلا للإصلاح"[١] ومن المعروف أن تربة بكتمر الساقي قامت بوظيفة الخانقاة كما سبق القول.

هذا ولم تقتصر النقوش الإنشائية على ترب الصحراء فقط، بل نجدها في منشأة كلٍّ من أحمد المهمندار وأيتمش البجاسي؛ ففي المنشأة الأولى ورد النقش الإنشائي على النحو التالي: "البسملة، أمر بإنشاء هذه التربة[٢] والمسجد المبارك من خالص ما أفاء الله عليه... أحمد المهمندار في المحرم (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)[٣]

ونلاحظ في هذا النقش ورود لفظ التربة والمسجد مع أن المقريزي يذكر أن مؤسس هذه المنشأة جعلها "مدرسة وخانقاة"[٤].

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم، المدرسة المملوكية، ص٧٤ لوحة ٢.

(٢) قرأ هذه الكلمة مهرن (المدرسة) وقد أورد أيضًا النقش الموجود بالقبة الذي يدل على أنه دفن فيها "العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد أمير مهمندار، وأمير نقباء الجيوش المنصورة الناصرية ولد الجناب الجمالي المهمندار تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح نعمته".

Mehren: Op. Cit, II. Del-p. 24.

(3) Berchem: Op Cit. Premiere partie, p. 172.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٩٩.

محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٠٧.

=

وورد النقش الإنشائي في المنشأة الثانية على النحو التالي: "البسملة، أمر بإنشاء هذه التربة المباركة... أيتمش البجاسي[١]... في سنة (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)[٢].

ونلاحظ هنا أن لفظ التربة ورد كنقش إنشائي للمنشأة كلِّها، مع أن المصادر التاريخية ذكرت أنها مدرسة[٣] وأيدتها في ذلك حجة الوقف التي تنص على أن هذه المنشأة تتكون من دور قاعة وإيوان واحد وقبة للدفن، وقد قرر الواقف بهذا الإيوان أكثر من درس عن طريق وضع جدول زمني لمواعيد هذه الدروس، بحيث يخصص موعد معين لكل درس لا يتعارض مع موعد الدرس الآخر وهكذا[٤].

ومن ثم يمكن القول بأنه لا توجد علاقة بين تخطيط المنشأة وبين الوظيفة التي

=

ولمزيد من التفاصيل عن هذه المنشأة انظر، عاصم محمد رزق، خانقاوات، ج١، ص٢٤٧-٢٥٧.

(١) هو الأمير سيف الدين أيتمش بن عبد الله الأسندمري البجاسي أتابك العساكر المصرية (ت٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م).

ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص١٤٣، ولمزيد من التفاصيل عن هذه المنشأة، انظر، حسني نويصر، العمارة ص٢٥٣-٢٥٧.

(2) Berchem: Op. Cit. Second partie p. 295.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٠٠.

ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص١٥١.

ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٦٠.

(٤) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة (رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط ١٩٧٩م). ص٢٣٣، ٥٠٢، ٥٠٥.

(وقد تم نشر هذه الرسالة، (كما هي، دون تغيير أو تنقيح أو إضافة)، الإسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٠م).

تؤديها؛ لأن ذلك يتوقف فقط على رغبة الواقف وما يقرره من وظائف في منشآته.

٣-الوثائق:

يستفاد مما جاء في وثائق الصحراء التي اعتمدنا عليها، أن لفظ التربة لم يكن يقصد به المقبرة فقط، وإنما يقصد به المبنى الذي يحتوي على أكثر من وحدة معمارية من بينها المقبرة أو المدفن ذو القبة، وبما أن المكونات المعمارية للتربة التي ورد ذكرها في الوثائق[١] هي نفسها المكونات المعمارية التي توجد كلُّها أو بعضها في الخانقاوات، فإن هذا يدل على أن لفظ التربة إنما يقصد به على وجه التحديد الخانقاة، وأن ما أضيف إليها من مساجد ومدارس وغير ذلك من المنفع والحقوق إنما كان لخدمة أرباب الوظائف بها أولًا، أو المترددين والمارين عليها ثانيًا.

ومن المرجح أن لفظ التربة أطلق على منشآت الصحراء؛ لأنه يغلب عليها الطابع الجنائزي تمامًا فمعظم الترب تحتوي على قباب ومدافن[٢] ومقاصير[٣]

---

(١) تتكون معظم ترب الصحراء من عدة مكونات معمارية من بينها أروقة وايوانات تقوم بوظيفة المسجد أو المدرسة، إلى جانب وجود أسبلة وصهاريج ومكاتب للسبيل ومقاعد وخلاوى وطباقات وأروقة لسكنى أرباب الوظائف بالتربة، وفساقي وميضات ومطابخ، كي ينتفع بها سكان التربة والمترددين والمارين عليها، ومقاصير ومدافن وقباب لدفن الواقف وذريته وعقبه ونسله وأحواش لدفن عتقائه ومن يلوذ به.

(٢) ومن أمثلة ذلك المدفن المجاور لقبة قرقماس أمير كبير من الجهة الجنوبية الغربية.

(٣) كانت تربة القاضي عبد الباسط تحتوي على مقصورتين برسم دفن الأموات إحداهما شرقيَّه وبها فسقيتان مبنيتان في تخوم الأرض بالحجر الفص النحيت، والأخرى غربيَّه، وبها فسقية واحدة مبنية في تخوم الأرض، وهاتان المقصورتان مسقفتان سقفًا نقيًّا مدهونًا، وقد وقفت الثلاث فساقي بها مدفنًا للواقف وذريته وحريمه وسراريه.

انظر نص الوثيقة في سامي نوار، الأعمال المعمارية للقاضي زين الدين عبد الباسط، ص٢٦٣-٢٦٤، ٢٦٩.

خصصت الفساقي بها لدفن الواقف وذريته وعقبه ونسله وحريمه وسراريه[١]، كما أنها تحتوي على أحواش كبيرة خصصت إما لدفن المتصوفة[٢] أو عتقاء الواقف وعبيده وأولادهم ونسلهم وعقبهم[٣] أو لدفن الأموات من "الذكور والإناث، الملك والملوك، الفتى والصعلوك، المسلمين والمسلمات على مر الدهور والأوقات من القريب والبعيد"[٤]

ويدلنا وجود هذه القباب والمدافن والمقاصير، وتلك الأحواش التي لم تخلُ أي منشأة منها، على أن منشآت الصحراء قد أنشئت أصلًا بغرض الدفن أي إنها منشآت جنائزية في المقام الأول، دينية تعليمية خيرية في المقام الثاني.

ومن هنا كان إطلاق لفظ التربة عليها، إنما هو لتأكيد وبيان هذا الغرض، وهذه الصفة، ويبدو أن هذا المعنى قد انتشر في العصر المملوكي وأصبح سمة مميزة لمنشآت الصحراء ويؤكد ذلك أن الأمير كافور الصرغتمشي أنشأ تربته وزخرفها، إلا أنه "كان يغضب ممن يسميها تربة"[٥] ومن ثم قام بتحويلها إلى خانقاة وأطلق عليها اسم القبة الخانقاة، وأكد ذلك في وقفيته[٦].

---

(١) الحداد، القباب، ص٦٠-٦١.

(٢) ومن أمثلة ذلك حوش الظاهر برقوق، وتربة الأشرف برسباي.

(٣)سامي نوار، الأعمال، ص٢٧٠.

حجة وقف قايتباي، أوقاف ٨٨٦، ص١١٥.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم، وقفية ابن تغري بردي، ص٢٠٢.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٢٦.

(٦) انظر نص الوثيقة في، دولت عبد الله، الخوانق في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص٢٥٣.

ويمكن القول أن طراز القبة الخانقاة قليل جدًّا في العصر المملوكي، وكان من الممكن أن =

ويوجد تفسير آخر ذكره بعض العلماء فقال: إن لفظ التربة مأخوذ من الطربال الذي خفف بحذف آخره فصار طربًا، وتداولته الألسن، فظن بعد ذلك تربة للشبه القريب بين طربا وتربة في اللفظ والمعنى، ومن ثم فإن التربة أو الطربال لا يراد بها المقبرة أو القبر وإن كان فيها شيء من معناهما، ولكن يراد بها تلك القباب المقامة عليها[١].

والواقع أن لفظ الطربال لا يرتبط بلفظ التربة من قريب أو من بعيد؛ لأن مدلوله اللغوي يختلف عن المدلول اللغوي للتربة، كما أنه إذا جاز القول بأن وصفه قريب إلى حدٍّ ما من القبة وليس التربة، فإنما هو ينطبق فقط على شكل واحد من أشكال القباب المتعددة ألا وهو القباب المخروطية الممتدة لأعلى والمنتشرة في شرقي العالم الإسلامي[٢]

=

تسمى زاوية، لولا احتواؤها على خلاوى منفصلة لعدد من الصوفية.

سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٣، ص١٥.

(١) محمد دهمان، في رحاب دمشق، ص٢٧٤؛ وقد أخذ بهذا التفسير أيضًا دون تحقيق، محمد عبد الستار عثمان، التربة الإيوان، ص ٢٧٦-٢٧٧.

والطربال هو البناء المرتفع كالصومعة ويوجد طربالين بظاهر الكوفة، وهما بناءان كالصومعتين والصومعة بيت للنصارى، لدقة في رأسه، وقيل للثريدة إذا رفع وسطها وحدد رأسها ودقق الصومعة وقيل ثريدة مصمعة إذا دققت وحدد رأسها، وصومعة النصارى من هذا، لأنها دقيقة الرأس وينطبق وصف الطربال على مقبرة زبيدة بالعراق تمام الانطباق.

محمد دهمان، في رحاب، ص٢٧٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن القباب المخروطية انظر، عطا الحديني، هناء عبد الخالق، القباب المخروطية في العراق (بغداد ١٩٧٤م) ص٩، ١٥.

عيسى سلمان (وآخرون)، العمارات العربية الإسلامية في العراق، ج٢، (بغداد ١٩٨٢م). ص٩٥، ١٠١ لوحة ٥٢، مخطط ١٣، علاء الدين العاني، المشاهد ذات القباب المخروطة في

=

ومهما يكن من أمر فإن هذا المعنى الذي ذهبنا إليه لم يكن قاصرًا على مصر وحدها، وإنما وجد أيضًا في بلاد الشام التي بُنيت بها ترب كثيرة –كانت عبارة عن منشآت تحتوي على أكثر من وحدة معمارية من بينها المدفن ذو القبة –في العصر الأيوبي والمملوكي أفرد لها المؤرخون فصولًا في مؤلفاتهم[١].

وكانت هذه الترب مراكز اجتماعية عامَّة يقصدها الغريب والقريب، ويلتقي بها الغني والفقير، ويتذاكر فيها العلماء، ويتدارس طلاب العلم، وزادها ما اشتملت عليه من الكتب القيمة والمؤلفات النادرة، ومن أمثلة ذلك خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق[٢]

كما جعلت هذه الترب أحيانًا دارًا للضيافة لكبار المسافرين من الخلفاء والملوك والوزراء والأعيان، ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو شامة من أن الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو القاسم أحمد عندما ذهب مع الظاهر بيبرس إلى دمشق في ذي

=

العراق، بغداد (١٩٨٢م).

(١) النعيمي، (عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي) (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

الدارس في تاريخ المدارس، نشر وتحقيق جعفر الحسني، ج٢، دمشق ١٩٥١م، ص٢٢٣-٣٠٢.

ابن طولون، (محمد) (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م).

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، القسم الأول، دمشق، ط٢، ١٩٨٠م، ص٣٠٨، ٣٤٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج١، ص٢١٤.

خالد معاذ، مدافن الملوك والسلاطين في دمشق، مجلة الحوليات الأثرية السورية، مج١، ج٢، ١٩٥١م ص٢٤١ حاشية ١.

القعدة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) نزل بالتربة الناصرية بجبل قاسيون[١]، بينما يذكر المقريزي أنه نزل بالتربة الصالحية في سفح قاسيون[٢].

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن إطلاق لفظ التربة على المنشأة الجنائزية الدينية ربما حدث أولًا في بلاد الشام، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة المملوكية.

(١) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، (عرَّف الكتاب وصححه الشيخ محمد الكوثري، وعُنِيَ بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الأولى، ١٩٤٧)، ص٢١٣.

خالد معاذ، مدافن، ص٢٤١ حاشية:٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

obeikandl.com

خامسًا: المسميات المختلفة التي أطلقت على صحراء المماليك

(شكلا ٤-٥، لوحتا (١٢-١٦، ٣١-٤٣)

يحسن بنا أن نتناول في ختام هذا الفصل المسميات المختلفة التي أطلقت على الصحراء، سواءً من قِبَل الرحالة والعلماء الأجانب أو المصريين على حدٍّ سواء، وبادئ ذي بدء نقول: إن بعض العلماء ذكر أن هذه القرافة (أي الصحراء) تمتد فيما بين قبة قانصوه أبو سعيد في الطرف الشمالي لها، وبين قبة تنكزبغا في الطرف الجنوبي[١].

والواقع أن هذا القول ينطبق فقط على الوضع الحالي لتلك القرافة، أما قبل ذلك، وبالتحديد حتى نهاية العصر المملوكي -وهي الفترة موضوع الدراسة-، بل وربما حتى النصف الثاني من ق ١٩م، فكانت تمتد إلى الشمال حتى الريدانية - العباسية الآن- حيث لا تزال توجد قبة العادل طومان باي، التي تعتبر آخر منشأة مملوكية أقيمت في نهاية الصحراء، وفي نفس الوقت تعتبر آخر حدٍّ من حدودها باقيًا إلى اليوم هذا من الطرف الشمالي، أما الطرف الجنوبي، فكان يبدأ من عند قلعة الجبل

---

(١) حسن عبد الوهاب، خانقاة فرج بن برقوق وما حولها، ص٢٨٣.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بعض الخرائط التي رسمت لمدينة القاهرة وظواهرها في ق١٩م، وخريطة القاهرة للآثار الإسلامية قد توقفت عند هذا الحد الشمالي أيضًا ولم تتعداه.

Plan General de la ville du Caire et des environs (redige d'apres les trovaux recens de M. Baur et Complete par le l. Colonel szultz ancien affieier du Gemie, 1846).

Plan de la ville du Caire et des environs (publie par W. Hamme-rschmidt). Au Caire, 1858.

خريطة القاهرة للآثار الإسلامية ١: ٥٠٠٠ (مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٨م).

خريطة مدينة القاهرة ١: ٥٠٠٠ سلسلة المدن

من الموضع الذي كان يبدأ من عنده ميدان القبق؛ وهو الثغرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها.

وإن نظرة فاحصة لخريطة وصف مصر لمدينة القاهرة تؤكد ذلك، فقد بينت الخريطة طابع الوحدة الذي اتصفت به الصحراء في المصادر التاريخية والوثائق الخاصَّة بالترب التي أقيمت بها[١].

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة عرفت في المصادر المملوكية وحجج الوقف باسم الصحراء، إلا أنها اشتهرت منذ أوائل (ق ١٩م)، بعدة مسميات فقد عرف الجزء الجنوبي منها باسم مقابر الخلفاء[٢] والجزء الشمالي باسم مساجد ومقابر قايتباي[٣].

---

(1) Description de L'Egypte –pl. 26.

حددت الخريطة الجزء الواقع شمال القلعة من الجنوب إلى الشمال على النحو التالي: ترب باب الوزير، ثم ترب قايتباي، وفي أقصى الشمال تربة العادل طومان باي، وهذا يبين لنا أن صحراء المماليك كانت منطقة واحدة تبدأ في الجنوب من عند قلعة الجبل بقرافة باب الوزير وتنتهي في الشمال عند تربة العادل طومان باي التي كانت آخر حد من حدود الصحراء الشمالية بُنيت به منشأة مملوكية لا تزال باقية لليوم، ومماله دلالته في هذا الصدد ما ذكره جومار من أن ترب قايتباي يبلغ إمتدادها نحو مرحلة وتتصل بمنطقة القبة. وصف مدينة القاهرة، ص ٢٢٦.

(٢) وردت هذه التسمية على خريطة لظواهر (لضواحي) مدينة القاهرة رسمت عام (١٨٠٩م)، وأعيد رسمها في عام (١٩١٠م) (ومحفوظة بمكتبة كريزول بالجامعة الأمريكية بالقاهرة).

(٣) وردت هذه التسمية في نفس الخريطة السابقة، وفي كل من الخريطتين الآتيتين:

Environs Du Caire en 1822.

Plan General de la ville du Caire et des environs en 1846.

أما الرحالة (بسكال كوست) فقد عكس الآية فأطلق على الجزء الجنوبي والأوسط منها اسم قرافة قايتباي، وأطلق على الجزء الشمالي اسم مقابر الخلفاء الفاطميين والأيوبيين[1]. (لوحة٣٣).

---

(1) Coste: Op, Cit: Planche LXX

Wiet (G): Mohammed Ali et les Beaux Arts. Planche IV.

ويذكر كوست أن هذه المقابر التي أقامها الخلفاء الفاطميون والأيوبيين، تقع في الشمال الشرقي من المدينة، وتتميز بجمال قبابها وبنائها المتين المُشيَّد من الحجر الجيري على هيئة مداميك منتظمة، وبعض هذه المقابر ملحق بها مساجد، كما أنها لم تحظ منذ سنين عديدة بالعناية، وقليلًا ما تزار من قِبَلِ المؤمنين بحق، وبعضها قد انهارت أجزاؤه واستخدمت كمأوى لعرب الصحراء والمشايخ أو الأولياء المتنقلين.

Coste: Op. Cit. p. 46.

والواقع أنه عند مشاهدتنا لخريطة كوست، تَبيَّن لنا أنه أطلق هذه التسمية على منشأة كل من إينال وقرقماس في الطرف الشمالي من الصحراء، ويبدو أن عدم معرفة كوست باسم منشئ هاتين المنشأتين، هو الذي دفعه لإطلاق هذه التسمية ظنًّا منه أن هذين الأثرين الرائعين المتجاورين، لا بد أن يكون مُنْشِئُهما من الخلفاء، ويمكن أن نُضيف ما يُؤكد ذلك فنقول: إن جهل بعض الرحالة والعلماء باسم منشئ هاتين المنشأتين أيضًا، جعلهم يطلقون عليهم اسم مخازن البارود فترة من الزمن أيضًا، نظرًا لاستخدامها كمخزن للبارود من قِبَل نظارة الجهادية في (ق١٩م)، وبالفعل عثر في حفائر ١٩٧٣م والتي قامت بها البعثة البولندية على مقطفين بهما كمية من المفرقعات في منشأة قرقماس، هذا ويذكر نجيب أن مهرن هو أول من أطلق هذه التسمية.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٧٩، حاشية ٣.

الواقع أن هذه التسمية أطلقت قبل مهران ودونت على خرائط مدينة القاهرة وظواهرها.

Plan de la ville du Caire et des environs en 1858.

Plan de la Ville Du Caire et De Ses environs en 1878.

(Lith Maurat – Comite, Marseille).

=

وأما من جاء بعد كوست من الرحالة، فقد استخدموا هذا التعبير أيضًا ولكنهم حذفوا اسم الفاطميين والأيوبيين، ومن ثم عمَّ إطلاق هذه التسمية على هذه المنطقة، وأصبح عَلَمًا عليها مدة طويلة، فعرفت في كتب الرحالة والعلماء باسم مقابر الخلفاء أو قرافة الخلفاء[1]، على الرغم من أنه لم يدفن بها خليفة

=

Plan De la Ville Du Caire et des environs en 1869-1860

(Mehren).

(1) Ebers (G): Descriptive. Historical and Picturesque.

(London. paris. New York. 1879).

Translated from the original German by clarabell. Vol I, pl. 300.

Le Bon (G): La Civilization des Arabes 1884. 1980.

Fig 105. p. 167.

Bechard (M) ET polmieri (M.A.): L.Egyte et la nubie. Grand Album.

Monumental Historique Architecural (paris. 1887). PL. XIII. Xiv.

Al gayet: L'art Arabe (Paris 1893) p. 134.

Franz pascha: Kairo pp. 90, 134.

Saladin: Op. Cit, fig 100, p. 151.

Margoliouth: Op. Cit, pp. 108. 124.

Fago; Op. Cit. fig 29.

Diez (E) Die Kunst Der Islamischen Volker (Berlin 1915). Abb, 203. p. 156.

Kuhnel: Islamische kunst pp. 172, 182, 187.

Tarchi (Arch ugo): L'architettura EL'Arte Musulmana in Egitto Enella polestina (Torino. 1923)

TAV. 86, 95, 96, 121.

Migeon (G): Les arts Musulamans (paris et Bruxelles, 1926) pl. XII.

=

فاطمي[١] أو عباسي[٢].

=

Devonshire: ramhles in cairo .p.55

Eighty Mosques and other Islamic monuments pp. 12-42.

Hautecoeur: (L) et wiet: Op. Cit, p. 259. 314 pl. 150. 151.

Wiet: The Mosquse of Cairo, .p. 28.

فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك ١٩٦٩م، ص٢١٧.

(١) ومن المعروف أن الخلفاء الفاطميين دفنوا في تربة الزعفران أو التربة المعزية، وفيها دفن المعز أباءه الذين أحضرهم في توابيت معه من المغرب، وهم الإمام المهدي عُبيد الله والقائم بأمر الله محمد، والمنصور إسماعيل، واستقرت هذه التربة مدفنًا للخلفاء وأولادهم ونسائهم، وكان من جملة هذه التربة الخط الذي كان يُعرف قديمًا بخط الزراكشة العتيق، ويُعرف اليوم بخان الخليلي، وكانت هذه التربة تمتد إلى المدرسة البديرية خلف المدارس الصالحية النجمية، كما كان لها عوائد ورسوم منها دخول الخليفة لزيارة آبائه كلما ركب بمظلة وعاد إلى القصر، وكذلك في يوم الجمعة دائمًا، وفي العيدين، وكانت هذه التربة غنية بما فيها من الذخائر والتحف، فعندما هاجمها الأتراك في أيام الشدة المستنصرية نهبوا ما فيها، أما في العصر الجركسي، فقد أخرج منها الأمير جهاركس الخليلي أمير أخور السلطان برقوق ما شاء من عظام الخلفاء الفاطميين، فألقيت في المزابل على كيمان البرقية، وذلك عندما أنشأ خانه المعروف نسبة إليه، المقريزي، الخطط، ج١ ص، ج٢، ص٤٤٢.

علي مبارك، الخطط، ج١، ص٣٩.

سعد زغلول عبد الحميد، الحياة الدينية في المدينة الإسلامية (مجلة عالم الفكر، مج١١، العدد الأول، الكويت ١٩٨٠م) ص٨١.

(وقد أُعيد نشر هذا البحث في كتاب: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢٤٥-٢٤٦).

(٢) لما توفي الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله سنة (٧٠١هـ/ ١٣٠١م) أمر السلطان الناصر محمد أن يدفن بالمشهد النفيسي ودفن هناك بجوارها وبنيت له قبة.

ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٩٥-١٩٦.

=

وقد أدرك خطأ تلك التسمية أحد الرحالة الأجانب فصححها وأطلق عليها

=

السيوطي: حسن المحاضرة: ج٢، ص٦٢.

السخاوي، تحفة الأحباب، ص١٣٦-١٣٧.

ونضيف فنقول: إن هذه القبة صارت منذ ذلك الوقت مدفنًا لهم، فكل مَن مات منهم دُفن بها حتى جمعت كثيرًا منهم، ومن ثم عُرفت باسم قبة الخلفاء العباسيين.

Russell: Op. Cit.p. 168.

وعلى الرغم من وضوح النص في أن هذه القبة بُنيت للخليفة العباسي، إلا أن القبة الحالية المجاورة لمشهد السيدة نفيسة، قد نسبها معظم علماء الآثار إلى أواخر العصر الأيوبي، لتشابه عناصرها المعمارية والزخرفية مع القباب الأيوبية في تلك الفترة، كما نسبوها إلى أبو نادلة سفير الخلافة العباسية إلى القاهرة في سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م).

Creswell: op. Cit. P.

أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، العصر الأيوبي، ص٣٨، حسني نويصر، العمارة، ص هذا وقد تبادر إلى ذهن (Bloom) أن ضريح الخلفاء العباسيين، هو التربة الظاهرية التي أشار المقريزي إلى أن الظاهر عمَّرها بالقرافة.

المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٣٨، إلا أنه ترك هذا الأمر بدون تأكيد، وذكر أن ضريح الخلفاء، سواء أكان هو التربة الظاهرية أم لا فإنها هي والمدرسة لا يمكن مقارنتهما بمسجده الجامع بحي الظاهر.

Bloom (j.m): The mosque of Baybars Al-Bunduqdari in Cairo, Annales Islomologiqyes, Tome XV III – I.F.A.O, le Caire, 1982 pp. 48, 49.

والواقع أن ما ذكره (Bloom) لا تؤيده النصوص التاريخية، بأية صورة من الصور، لأن تربة الظاهر، كانت تقع بجوار الحوش الظاهري الذي كان يقع في آخر القرافة عند خانقاة بكتمر الساقي وتربة ابن عطاء الله السكندري وابن وفا الشاذلي، أي في المنطقة التي توجد بها اليوم قرافة سيدي علي أبي الوفا شرق قرافة الإمام الشافعي والإمام الليث بن سعد.

ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص٣١٩.

السخاوي، تحفة الأحباب، ص٣٩٧-٣٩٨.

اسم قرافة المماليك[١].

وعرفت هذه المنطقة بأسماء أخرى، منها: القرافة الشرقية[٢] والقرافة[٣] الشمالية، والقرافة الشمالية الشرقية[٤]، والقرافة الكبرى[٥].

وقد وصف الرحالة والعلماء الأجانب هذه القرافة، فذكر أحدهم أنه "إلى الشرق من المدينة على مسافة ميل تقريبًا تُوجد جبانة إسلامية كبيرة، ومشهورة جدًّا، وتعلو المقابر العديد من القباب التي تجعل الإنسان يعتقد أنه ينظر إلى مدينة عظيمة بدلًا من جبانة".

وقال رحالة آخر: "توجد بعض الجبانات الكبيرة تحوي مقابر المسلمين، بنيت بها مقابر من الرخام الرائع والسماق والمرمر والأحجار الراقية الأخرى المتقنة البناء والمذهَّبة، ولم أرَ شيئًا آخر يوازي روعتها في العالم المسيحي بأسره، هذه هي مقابر

---

(1) Scitivaux (R): voyage en orient (paris, 1863) pl. Facing p. 16.

محمد مصطفى نجيب، مدرسة الأمير، ص٦٨ حاشية ٢.

(٢) لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن (وآخرين)، القاهرة ١٩٥٠م، ص٢٠٢

Comite de conservation des momuments de l'art arabe (exercices 1914, le Caire 1916) p. 23.

(exercices 1936 – 1940, le caire 1944) p. 44.

Briggs: Op, Cit pp. 117, 121, 124, 127, 130.

(3) Hautecoeur et wiet: Op, cit, pl .139, 140, 152, 153, 179, 195 196, 197, 198, 199.

Wiet: The mosques of Cairo, pp. 29, 111.

فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص٣٢٧.

(4) Hautecoeur et wiet, op 259, 260, 314.

(5) Al Gayet, op Cit, p. 134.

السلاطين والأمراء والنبلاء المسلمين القدامى"[١].

أما علماء الحملة الفرنسية فذكروا أنها "مدينة بديعة هجرها عشيَّة الأمس سكانها، وذلك عندما يراها الإنسان لأول وهلة، ولكنه عندما يرى شوارع المقابر يظن أنه في "سهل مزروع بالمقابر وفي كل مكان ستتجلَّى فنون العمارة التي تتضاءل إلى جوارها، وبخاصة الأضرحة الكبيرة، عمارة المساجد وقصور الكبار"[٢].

وأطلق عليها البعض الآخر اسم "وادي المقابر"[٣].

والواقع أن كل هذه المسميات والأوصاف التي وصفت بها هذه القرافة تخالف الاسم الذي اشتهرت به في المصادر المملوكية وحجج الوقف، حيث عرفت بالصحراء، وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن الاسم الذي يجب أن يلصق بهذه المنطقة وتعرف به، هو قرافة صحراء المماليك أو قرافة المماليك الشمالية تميزًا لها عن قرافة المماليك الواقعة جنوب القلعة، والمشهورة باسم قرافة المماليك الجنوبية أو قرافة السيوطي أوقرافة سيدي جلال.

هذا وقد قام علماء لجنة حفظ الآثار العربية بتحديد المباني الأثرية الموجودة في صحراء المماليك، فيما بين خانقاة فرج بن برقوق وقبة يونس الدوادار (أنس)

---

(1) Wiet: the Mosques of Cairo, pp. 27, 28

فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص٢١٥.

(٢) علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، المجلد الأول، المصريون المحدثون، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٦٢-١٦٣.

(3) Du camp (M) Egypt nubie, palestime ets eyrie (paris 1852)p. 57.

Rhone (A): L'Egypte A petites journees etudes et souvenirs (paris, 1877).

(plan Geneal du Kaire ancien et de ses environs) p. 24.

ومسجدي إينال وقرقماس، مع العمل على ضم الآثار الموجودة في قرافة حي العباسية، وقد ذكر (مستر بوتي) أنه شارك لبضع سنوات في تنظيم منطقة القرافات مع محافظ القاهرة القديم، وأنه وضع مشروعًا لتحديدها يتطابق مع وجهة نظر التنظيم"[1].

وعلى الرغم من طابع الوحدة الذي اتصفت به هذه القرافة (صحراء المماليك) في المصادر التاريخية وحجج الوقف، إلا أنها قسمت إلى عدة تقسيمات وبالتالي إلى عدة مسميات تشتهر بها الآن، فيُعرف الجزء الشمالي منها باسم قرافة الغفير[2].

---

(1) Comite de consevation des monuments de l' art Arabe exercices 1936-1940(le caire. 1944).pp. 43. 44.

وعن بقية قرارات لجنة حفظ الآثار العربية والمناطق التي قُسمت إليها الصحراء.

Ibid – pp. 101. 108. 109. 316. 400.

(٢) عُرفت بهذا الاسم نظرًا إلى أن غفير نقطة تحصيل عوائد الدخولية، كان يسكن في قبة قانصوه أبو سعيد فاشتهرت به.

سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحياؤها (المكتبة الثقافية، العدد ٧٠، أول أكتوبر ١٩٦٢م) ص٨٨.

ومن المعروف أن ضريبة الدخولية حدثت في زمن الخديوي إسماعيل، وفُرضت على جميع ما يدخل القاهرة من حبوب وخضروات وفواكه وصناعات وتجارات، وكان أمام الواجهة الشرقية لقبة الفداوية قطعتا أرض يشغلهما مقهى ومركز للدخولية أزالتهما لجنة الآثار عندما جددت القبة عام (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م).

حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ج١، ص٢٧١، حاشية ٢، أما عبد الرحمن زكي فيذكر أن غفير المباني الأثرية بتلك الجهة، كان يسكن في قبة قانصوه أبو سعيد ومن ثم عرفت به.

عبد الرحمن زكي، موسوعة مدينة القاهرة، ص١٩٠، (ومما له دلالته، في هذا الصدد، أن ما أشار إليه عاصم رزق من أن قبة خانقاة قوصون بقرافة السيوطي أو سيدي جلال جنوب القلعة هي قبة الغفير يعد أمرًا بعيد عن الصواب إلى حد كبير).

عاصم رزق، خانقاوات، ج١، ص٢٧٥.

أما الجزء الأوسط فيعرف بقرافة[١] قايتباي، وإن كان يعرف جزء منه بقرافة العفيفي[٢].

ويتصل بقرافة قايتباي قرافة تعرف بقرافة المجاورين[٣]، وعرفت بذلك الاسم

---

(١) وهي تنسب للسلطان الأشرف قايتباي، صاحب أكبر مجموعة معمارية أقيمت في تلك المنطقة ووردت هذه التسمية في خريطة وصف مصر بصيغة ترب قايتباي، وفي خرائط بقية الرحالة بصيغة مساجد ومقابر قايتباي.

(٢) وهي تنسب إلى الشيخ الإمام عبد الوهاب العفيفي المالكي البرهاني، ولد بمنية عفيف إحدى قرى مصر وتوفي (١١٧٢هـ/ ١٧٥٨م)، ودُفن بجوار الشيخ عبد الله المنوفي، وأُقيم على قبره قبة معقودة، وعُمل له مقصورة ومقام، وجُعل مزارًا يقصده الناس باختلاف طبقاتهم، ويُعمل له مولد كل عام تحدث فيه مفاسد كثيرة.
الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج١، مصر (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م)، ص٢٢٠-٢٢١.
ويذكر علي مبارك أن الست ممتاز هانم حاجي، إحدى حظايا المرحوم العزيز محمد علي المعروفة بأم حسين بك هدمت هذا المبنى ووسعته وأنشأته جامعًا بمنبر وخطبه، وجعلت له ميضأة وبئرًا معينة، وبَنَت لنفسها فيه قبرًا دُفنت فيه بعد وفاتها(١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م).
علي مبارك، الخطط، ج٥، ص١٢٢.

(٣) المجاور هو المسلم الذي يعيش بأحد الأماكن المقدسة، أي بجوارها، بقصد العبادة أو التعلم أو التدريس.
حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج٣، ص١٠٢٠، ١٠٢١.
وقد عُرف المجاورون بالأزهر منذ العصر الفاطمي، وكانت لهم مراسيم خاصة، وكذلك عوائد خاصة بهم، وإذا مات المجاور تُعمل له عتاقة (لا إله إلا الله) بعد المغرب، وتستمر حتى العشاء، ولمزيد من التفاصيل:
علي مبارك، الخطط، ج٤، ص٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٦٦، ٦٨.
حسن عبد الوهاب، تاريخ، ص٥٤.
جمال سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية، (الألف كتاب، العدد ٢٧٤، ١٩٦٠م)
=

لأنها قريبة من الجامع الأزهر وبها "يدفن غالب أهله المجاورين، إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء والغرباء والفقراء""[١].

وأضاف النابلسي على ذلك فذكر أنه دفن بها من العلماء والفضلاء والصلحاء ما لا يحصى عدده ولا ينسى مدده من قديم الزمان وحديث الوقت والأوان""[٢].

ويستفاد مما ورد في الجبرتي أنها عرفت أيضًا ببستان العلماء أو البستان أو بستان المجاورين، وأحيانًا عُرفت بالقرافة الكبرى[٣]. ومن ثم يمكن القول بأن المقصود بالقرافة الكبرى في الخطط التوفيقية ومن نقل عنها هي قرافة المجاورين[٤]، وليس القرافة الكبرى شرق الفسطاط والتي سبق الحديث عنها.

ويبدو من خلال المصادر التاريخية أن هذه التسمية (قرافة المجاورين أو ترب المجاورين) عرفت منذ أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني، حيث

=

ص٢١٨.

مجاهد توفيق الجندي، رواق الأتراك بالجامع الأزهر بالقاهرة (ندوة العلاقات العربية التركية في جامعة عين شمس في الفترة من ١٧-٢٢ مارس ١٩٨٤م) ص٩.

Lane (E.W.): Cairo fifty years ago – Rdited by. lane – pool (S) London, 1896 p. 123.

(١) نجاح صلاح الدين القابسي، رحلة العياشي، تحقيق ودراسة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة عين شمس ١٩٧١م، ص١٥٥.

(٢) النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص٢٥١.

(٣) الجبرتي، عجائب، ج١، ص٧٣، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٦، ١٨٩، ٢٦٤، ٢٨٨، ٣١٢، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧١، ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٦.

ج٢، ص٢٧، ٧٧، ٢٣٣، ٢٥٩، ج٣، ص٦١، ٦٧، ج٤، ص١٩٧.

(٤) علي مبارك، الخطط، ج٤، ص٦٨.

عبد العزيز الشناوي، الأزهر جامعًا وجامعة، ج١، القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٩٦.

وردت أوّل إشارة -فيما أعلم- عن تربة المجاورين في عام (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)[١]، ثم توالت الإشارات بعد ذلك بكثرة بالغة[٢].

ويتصل بالمجاورين من الجنوب قرافة باب الوزير، وعرفت هذه التسمية أيضًا فيما أعلم، منذ بداية (ق١١هـ/ ١٧م)، ودليل ذلك ذكره "المحبي" فقد ذكر أن الشيخ القزاز عندما مات (١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م)، دفن عند أولاده بقرافة باب الوزير تجاه النظامية[٣].

ووردت هذه التسمية أيضًا في خريطة وصف مصر بصيغة ترب باب الوزير[٤]

---

(١) الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٧٠.
ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص١٥٦.

(٢) المحبي، محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر مصر، (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م).
وطبعة دار صادر، بيروت، د. ت، ج١، ص٣١، ٤٦، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٩٥، ٩٦، ج٣، ص١٦١، ٢٢٠، ٣٨٥، ٣٨٦، ج٤، ص١٠٥.
الحضراوي، أحمد بن محمد الحضراوي المكي الهاشمي، (ت١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر في تراجم رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تحقيق محمد المصري، دمشق (١٩٩٦م)، ق١، ص١٦٧-١٧١، ٢٨٨، ٣٢٦، ق٢، ص٢٥-٢٧، ٦٧-٦٨، ١٣٧-١٣٩.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن تيمور خان بن حمزة بن محمد الرومي الحنفي نزيل القاهرة، المعروف بالقزاز، وكانت له أحوال عجيبة ووقائع غريبة، وكان في أكثر أوقاته يأوي إلى المقابر بظاهر القلعة وباب الوزير والقرافتين.
المحبي، خلاصة، ج١، ص١٧.

(٤) Description de L'Egypte, pl. 26.
وذكرها جومار باسم مقابر باب الوزير بالقرب من الباب المعروف بهذا الاسم. وصف مدينة القاهرة، ص ٢٢٦.

كما ذكر على مبارك أن باب الوزير هو أحد أبواب القرافة تحت القلعة[١] ومن ثم نسبت إليه القرافة.

obeikandl.com

(١) علي مبارك، الخطط، ج٢، ص٢٨٣، ج٤، ص١٣٤.